





قَتِيَّةٌ تَخَارَمُونَهَا

Qatīyah Takhāramūnahā

الطبعة الأولى

١٩٨٧ - ١٤٠٧ م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

دار الشروق: ٧٧٤٧٨ - ٧٧٤٨١ - بريجة شروق - الميقات - SHOUK UN  
بشورق: ٨٠٧٤ - فاقب ٣١٥٤٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٣١٩ - بريجة والشروق - الميقات - SHOUK UN  
SHOUK INTERNATIONAL 24120 REGENT STREET, LONDON W1 UK TEL 007 234344, TELEX SHOUK257700

# فَتْحِيَّةُ تَخْتَارِ مَوْتَهَا

مجموعة قصص

ليلى العثمان

دار الشروق —

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## فتحية تختار موتها .

« إلى الكاتب الفلسطيني . »

رشاد أبو شاور -

من خلف الزجاج كنت أراقبها .. كان الصبح يطل بوجهه باردًا لا يزال .  
والشمس تتزلق في السماء جدائل شقراء تغرس نفسها في قلب البحر لتستحم ،  
وتثير الدفء رويدًا .. رويدًا .. حتى يصل إليها .. تحس به فترتخي أعضاؤها  
التي تبيست إثر ليلة باردة .

تبدأ حركتها .. أرجلها تتحرك بمشقة .. تتشابك معًا لحظة كأنها بذلك تشد  
أزر بعضها بعضًا ، وتتباعد لحظة أخرى .. تصبح كأيدٍ غرقى تصرخ في آذان  
بحارة منهكين .. يمزون ولا يلتفتون .. فتبدأ . تتجمع على نفسها بذبول يتحول  
شيئًا .. فشيئًا إلى استسلام ما تكاد تعتاد عليه حتى تعود إلى حركتها العصبية  
محاولة التخلص من المأزق الذي وضعها فيه هزة هوائية مفاجئة ، وتنتظر أن تأتي  
هزة أخرى لتعيدها إلى وضعها الطبيعي ، مستلقية على ظهرها الأملس ،  
لا تكف عن المحاولة ، وأنا .. عيناها من خلف الزجاج تراقبها .. وضعها  
يؤلمني .. وضع مشلول لا يدعها تتحرك خطوة واحدة ، وقد تبقى على حالها  
زمنًا بينا الأزمان تأتي .. وتسافر .. وتصافح أوجه النهارات المشرقة . من يرضى

هذا الأسر؟؟ من منا لا يتوق إلى الحرية في كل لحظة؟؟ فكيف لهذه البائسة  
أن تسترد حريتها التي افتقدتها؟؟

أشفقت عليها ..

توسلت إليه وهو بجانبى يفرك كفيه الباردتين لتدفأ :

- أرجوك .. اعد لها لترتاح .. أو اقلتها لترينحي ..

زفر :

- مالك ولها !! إنها مجرد خنفساء .

أبتلع غضبي .. هكذا إذن ينظر إلى تلك المعذبة ..

هو لا يدرى أنها بنظري ليست خنفساء ، وإحساسى الداخلى هى ليست  
حشرة .. إنها مخلوقة أخرى تحاول فى ذل ، وضعف لا تعترف بهما .. لكن  
وضعها يشهد على ذلك .. تمنى لو تمتد يد .. أية يد ... قدم .. أية قدم ...  
لتحركها .. فتعتدل وينفك الأسر الذى جمدها طوال الليل .

صوتى المبحوح يكاد لا يصله .. كيف يدرى أننى أبتلع حزنى ؟ . هو فى  
النهاية رجل ككل الرجال ... لا يهمه أن تكون المرأة - الحشرة - مقلوبة .. أو  
معدولة ..

المهم أن تكون من وضع يناسب مزاجه .. ويريح رجولته .. ويرضى  
غروره .. هو يرى الحشرة كما هى « خنفساء » بينما أراها أنا - والسهم غارز فى  
الصدر - أراها ... فتحية .

\* \* \*



رفضت فتحية أن تتحرك من فراشها .. صرخت فيها أختي الكبرى :

- قومي .. تحركي ....

لكن فتحية التي تحب النوم .. والاستكانة في وضع واحد لا تريد أن تتحرك ... ظلت خائرة في فراشها .. سحبت غطاءها المنقش . وتأفقت مرتين قبل أن تجيب :

- لن أتحرك ... ولن أذهب ... إنني أكره وجهها .  
كنت الصغيرة .. رفض لسانى الذى يخسونه دائماً أن يتعاطف مع فتحية .. أن يعلن هو الآخر عن كرهه لذلك الوجه .. أنا أيضاً لا أرغب في الذهاب لكنى ملزمة بأن ألتزم موقف الباقيات .

قالت فتحية كلماتها ... ثم أغمضت جفניה لتعود بوجهها إلى الحلم الذى استفاقت منه ... وظننت أن أختي الكبرى قد استسلمت لموقف فتحية . لكنها عادت تهزها بعنف :

- قومي ... سيأتى أبى بعد قليل وسنغادر إلى هناك . انتصبت فتحية في فراشها ، ثار شرر في عينيها رغم قبحه كان يعبر عن موقف تمنيت لو أمارسه :  
- لن أذهب .. وأبى لن يجبرنى .. فلماذا أنت تُلحّين ؟؟ عادت تتكلم في فراشها غاضبة ...

هنا .. جاء صوت أختي الثالثة تلاطف أختي الكبيرة :

- دعها .. لا تفرضي عليها ...  
لكن هذا اللطف أثار أختي فصرخت :

- لا .. لن أتركها ... لا يجب أن تنفرد بقرارها .. ولا برأيها .. لا يجب أن تنفصل عنا .. يجب أن تذهب .
- دنت أختي الثالثة من فتحة هزتها بحنان :
- فتحة ... يجب أن تنهبي معنا ..
- أكره الذهاب .. وأكره أن أراها ...
- كلنا نكره أن نراها .. ولكن يجب أن نفعل .. علينا أن نواجه أمنا .. سنقول لها كوني حنوناً يا أمي ..
- لنحبك .. ونأتيك راضيات .
- هزئت فتحة بما سمعت وقالت :
- لا يجب محاورة الأم .. هي تفعل ما تريد وعلينا أن نطيع .
- الحوار قد يفيد يا فتحة . قومي معنا ... يجب أن نسمع أمنا صوتنا .. يجب أن نعرف بأننا لا نرضى بهذه القسوة .
- .....
- قومي يا فتحة ...
- كلا .. لن أذهب .
- إذن .. تختارين التفرد برأيك .. حسن .. سنتركك وسنذهب ..
- وقالت أختي الكبرى :
- نعم .. سنذهب ... سنواجه المصير وحدنا ..
- قالت فتحة :
- ستكنم أصواتكن هي وزوجها .. وستفرقكن .
- أخرستها أختي الكبيرة :

.. لن تستطيع .. سنكون صلبات .. وليس مثلك جبانة .  
ثم التفتت إلى وإلى أختي الثالثة :  
.. هيا .. أعرف مسبقاً ما الذى ينتظرنا هناك .

\* \* \*

هناك فى بيت آخر ينتظر وجه أمى المستطيل تتلاعب ضفيريّتان مخيبتان على  
كتفها المرمريّين يداعبها رجل آخر غير أبى .. وعلى صدرها تلنصق طفلة أخرى  
ترضع اللبن الذى حرمتنى منه ... لو ذهبنا الآن ... وفتحت الباب ... فلن  
يهمها أن تحضن بالشوق وجوهنا .. لن يرقص قلبها فرحاً ... بل سترقص عيناها  
لتعد وجوهنا :

واحدة ...

اثنان ...

ثلاثاً ...

وأين الرابعة ؟؟

\* \* \*

ارتعشت ...  
بكيت ... لمحت أختى الكبرى دموعى .. فبكت مشفقة على طفولتى ..  
نسير نحو باب الغرفة .. صوت فتحة المتكومة فى الفراش يتبعنا :  
- أرجوكن .. لو سألت عنى قلنَ لها إننى مُت .

\* \* \*

للموت صوت لا يسمعه إلا من يتمناه .. كان الموت بالنسبة لنا .. هو الحياة المريحة .. هذا العزق بين الأطراف أرهق الطفولة : أجهض فرحها أكثر من مرة .. قتت في العظام نخاعها ... وأحترقت الأعصاب .. والشمس كانت حارقة ذلك اليوم - يوم الانفصال - كانت تعلن أن للموت أسباباً وللحياة كذلك .. فهل يجب أن نعيشها مفتتين؟؟ أو كاملي النمو والوعي؟؟؟

\* \* \*

وعى فتحية لم يكن يسبق وعينا .. كنا نتلمس الجرح .. نضبط عليه لأننا لا نريد لكمية الألم أن تموت .. نريدها أن تنمو معنا ... تشحننا بالطاقة التي نستطيع معها أن نرفض تلك الأمومة الزائفة ونصرخ يوماً في وجه أمى ... لكننا اليوم ... نريد أن تنفصل ... أن تبقى وترج بنا نحن الثلاث بأتون الغضب وكأننا نحن اللواتي أردنا هذا الانفصال .. هناك .. ينتظرنا غضب أمى ، وشرها الذي لن يراه أبى .. بل يحس به ... يقف أمامه مرعباً .. سيقف عند رأس الشارع ليودعنا .. ولا يجرؤ أن يقترب ... ولو فعل لخرجت إليه مهتاجة كما فعلت - جلدتى - من قبل .. يومها ضربت أبى أمام أعيننا .. وبكى .. ليس تألماً بل حزناً على نفسه .. وخجلاً ممّا .. منذ ذلك اليوم ابتعد .. يوقف سيارته بعيداً .. وترجل منها كما تترجل خيول تَعْلَمُ أنها ستباع .. أو ستُعدَم .. أو ستسجن في اسطبل لا تفوح منه رائحة الدخان .. فندم ما تفوح منه رائحة براكين الغضب .

يظل أبى واقفاً بجانبه بانتظار أن تقطع أرجلنا الطفلة المسافة .. وما أن نصل إلى الباب حتى نلوح له ويلوح لنا مودعاً .. وفي كل مرة كان يخشى أن يكون

وداعه لنا نهائياً .. لكنّ المساء يأتي .. ونخرج خائبات نقطع نفس الشارع الضيق الذي جثناه والشمس تضيء ترابه .. نخرج منه والظلام دامس يعلن عن ظلمة نفوسنا .. عن حزننا .. بؤسنا الذي عانيتاه نهائياً كاملاً فى بيت أمى .. نقطع الشارع بأسرع ممّا دخلناه .. قلوبنا ترفرف كالعصافير .. نهتف : نعود إليك يا أبى .. احملنا على جناح قلبك .. طيّبنا .. ونرجوك .. لا تُعُدّ بنا ثانية إلى هنا .

\* \* \*

هنا .. تتكلم الخنفساء ...

وهناك فتحة كانت تتكلم .... ترفض أن تنزعها أختى من مكانها ... وفى داخلها تمنى أختى- كما تمنى - أن تنزع فى الفراش مثل فتحة ونعلن لأبى أننا جميعاً نرفض الذهاب .. لكنها بذلك الوعى الطفولى .. تدرك أنه لابد من الحركة .. لابد أن نواجه شرّ أمى ... أن نعتاد عليه .. حتى نفهمه .. وتعلم منه .. ثم نواجهها فى نفس السلاح .. لا بأس لو تضرّر جسدنا الطرى .. لا بأس لو مرّقنا قسوتها التى لا يقف فى وجهها أى سد حتى الزوج الجديد .. يتفرج فقط .. فلا مهمّة له سوى إغداق المال .. وإرضاء الجسد البضّ الذى تفوح رائحة عطره .. وشرّه .

\* \* \*

ذلك الشركان ينتظرنا .. تماماً كما ينتظر الليل هذه الخنفساء لتجمد أطرافها فيه .. بانتظار صبح جديد تنفس فيه ... وفتحة كذلك .. تريد أن تنفس

اللحظة ولا يههما أن تظل مكانها معطلة .. لكنها لم تعطلنا .. حملنا أنفسنا نحن  
الثلاثة إلى سيارة أبي ... كان قلبنا الراجف لا يستقر . وحين لامست أقدامنا  
تراب الشارع ارتعدنا .. أحس أبي تلك الرعدة .. مَسَّ كَتِفِ أختي الكبيرة ..  
همس لها :

- إذا سألت أمك عن فتحة قولى لها إنها شربت اليوم - ملح أمريكى -  
أحسست بطعم الملح ذاك فى فى .. احتاجت مصارينى فوقأت كما تقوى  
الدجاجة ويتسارع ثمرها المدفون فى داخلها فتبيض ... أمسكتُ بطنى أهرسه  
وأصرخ :

- آه .. بطنى .. بطنى ...

حضن أبى وجهى .. يعلم ما الذى يصارع المصارين . الخوف .  
- لا تخافى .. يجب ألاّ تخافى .. كونى شجاعة .

\* \* \*

أى شجاعة ١١١

حتى السماء كانت كدرة .. فاقدة لصفائها .. عابسة كأن شيئاً عزيزاً عليها  
فى الأرض يموت .. وشهدت أترية الشارع ضربات القلب السريع .. سجلت  
آلاف الحكايا التى شغلت الذهن ونحن نقطع الشارع .  
ماكاد الباب يفتح .. حتى تناثرت نظرات أمى :

- أين أختكم ؟؟

- لم تأت ...

قالتا أخفى الكبيرة بذل .. وانكسار شق قلبي . وهوت يد أمي البضة على  
صدغها .. رن الكف على خدي .

- وحدكن !! ... لماذا لم تأت معكن ؟؟

- شربت ملح أمريكاني ...

وصرخت أمي :

- حتى لو شربت كل ملح الأمريكان ... وسحبنا إلى الداخل ... ارتدت

عباءتها الحريرية .. نظرت إلينا :

- سأذهب .. وأحضرها ... وسترى !!

خرجت كالبقرة الهالكة ... وبقينا نرتعش .

\* \* \*

الخنفساء ترتعش ... الظهري يرمي غلالته الندية على الأرض ... وعلى البحر  
المواجه لى .. وعلى الشرفة .. والغيم يتسلل بين لحظة .. وأخرى .. إلى وجه  
الشمس يصفعها ما كادت .. حتى بكت ... قطرات المطر تساقطت متسابقة  
تعشق على الارتطام والموت على رأس الحشائش الذائبة وجدا .. سالت المياه ..  
وصلت إلى الخنفساء ..

أحست برودة الماء .. انكشيت أكثر ... أكثر ...

الوقت يمضي بطيئاً ... هي معطلة ترتعش .. ترتعش ..

تذكرنى بذلك الارتعاش الذى عشناه .

\* \* \*

شمس الظهيرة حارقة ... حوش البيت - بيت أمى - نظيف لامع ..  
توسطه شجرة خضراء كبيرة بنت أمى حولها حوضاً مربعاً من الطابوق ...  
وحرس ترابه بنباتات صغيرة تتحمل الجوع ... والعطش ... وأمى ذكية  
تعرف كيف تختار النباتات القنوعة التي لا تأكل من خير الشجرة الكبيرة ..  
ولا يرتفع رأسها ... وهى لا تسقى مساحات التراب كلها ... فقط ... تحت  
الجدع الكبير حتى لا تولد نباتات أخرى طفيلية تتسلق الجذع .. وتنخره .. إنها  
تكره أن ينافس الشجرة أى نبات قوى ... وما هذه الأشياء المزروعة إلا لتزين  
ما حول الشجرة .

فى اللبوان الذى يرتفع ثلاث درجات عن أرض الحوش كنا نجلس  
متلاصقات فوق المطارح الوثيرة والمساند المطرزة .. نتلاصق رغم حرارة  
الظهيرة ... كانت أجسادنا ترتعد ... زوج أمى ينتقل من الشجرة إلى آخر  
الحوش حيث تُربطُ عترة وهو متوتر يحمل عصاه .. وكلما ازداد توتره رفع عصاه  
وهوى على ظهر العترة .. فأماأت المسكينة دون حراك .. ونحن نشاهد المنظر  
نحس لمس العصا على ظهورنا .. القلق يفترسنا ... يفترس زوج أمى ...  
تأخرت ... ماذا تفعل هناك ؟؟ ماذا تكيّل لأبى ؟؟ ولزوجته الطيبة ؟ ! و ...  
لفتحية ؟؟



اعترفت فتحية بعد ذلك .. أن الوقت الضائع الذى انتظرنا فيه كانت أمى  
تقضيه معها .. أجلستها فى حضنها .. سكبت حناناً وهماً عليها ... قبلتها ..  
أخرجت لها من تحت العباءة كيساً مليئاً بالحلوى .. بالبسكويت ... أعطتها لعبة



تمت فتحة أن تملك مثلها .. فأغرته الهدايا ... والأطياب .. سحرها الحنان المفاجئ ... ونحن نرتعد متلاصقات ... محرومات من كل ذلك .. خائفات .. بينا فتحة تصلق ! ونُخدع .. ونقوم مسرعة ترتدى ملابسها وترافق أمي ... وقالت لنا بعد ذلك إن أمي أكلت لها بأن كثيرًا من الحلوى والهدايا قد حصلنا عليه قبل أن تأتي لتأخذها .. ركضت فتحة .. وضعت يدها بكل ثقة بيد أمي ... وانطلقنا إلينا .

\* \* \*

مرتعدات لا نزال كنا .. لكن وجه فتحة حين أقبل مستبشراً ودّعنا الرعدة .. تصورنا أن مولودًا جديدًا انبعث في قلب أمي ليملئ شملنا معًا .. فتفافنا نستقبلها بنشء الفرح الآتي معها .. نمزجه بفرحنا الذي انساب فجأة مع العرق المحبوس داخل مسامنا .. وحين توسطنا الحوش قريبًا من الشجرة .. صرخت أمي صرخة داوية جفلت لها قلوبنا ....

خلعت عباءتها .. ألقتها كمن يلقي النار واشتغلت . أخذت تنال علينا ضربًا .. مزقت التصاقنا .. تفرق شملنا .. وقعنا .. اصطدمت جباهنا بحجارة الأرض فتكومتنا ... اللعب ، الحلوى ، والهدايا تناثرت .. وزيد أمي يتناثر من فها مراً .. فتحة تحاول أن تمسك بقطعة من الحلوى .. لكن قدم أمي ترفضها .. فتستلقي على ظهرها .. وتحاول بحركات يديها .. وقدميها أن تمنع ضربات قدم أمي ... صراع لا أنسائه .. كصراع تلك الخنفساء التي يعذبني وجودها .

كانت فتحة ملقاةً بانتظار أن تمتد لها يد واحدة منا .. فتعدها .. لتقوم ..

وتحاول .. لكننا كنا نشحن أنفسنا بالقوة .. علينا أن نتكاتف .. لا وقت للتفكير ..  
فى فتحة التى اختارت أن تنفرد بقرارها ... وكأنها بذلك قد اختارت موتها  
تحت قدم أمى المسعورة .. تنشل حركتها .. ونحن بعيدات عن موطئ القدم  
لا نزال .. وعلينا أن نتصرف .

\* \* \*

- عليك أن تتصرف  
همست له .. طبعاً قبله على وجهته التى دفئت ..  
- أرجوك .. اخرج .. وتصرف .  
تساءل :  
- فى هذا البرد الشديد ؟  
وانهمر توملى :  
- أرجوك .. إما أن تعلها لرتاح ... أو ... اقتلها . وابتسم :  
- لم لا تنسى وجودها ؟؟  
- إنها أمامى .. تضايقنى بمحاولاتها الفاشلة .  
ربت على يدى :  
- ليست كل المحاولات فاشلة .. بعض المحاولات جيدة ... ومنتجة ..  
لنتركها ... قد تغلح فى أن تنقذ نفسها .. من يدري !!  
تدفق دمع إلى حلقى . همست :  
- أنت لا تدري ! حين تنقلب الحنفساء يصعب عليها أن تستعيد وضعها ..  
علينا أن نساعدنا .

يومها .. حاولنا أن نساعد فتحية التي كانت تنسحق على ظهرها تحت قدم  
أُمى الثائرة .. حتى اقتربت من الشجرة .. تمسكت بجذعها تتمنى لو تخلفه من  
مكانه .. وتحنى فى ترابه .. اهتزت الشجرة .. وتساقطت حبات « الكنار »  
الحمرء المستوية .. لو كنا فى بيت أبى نملك مثل تلك الشجرة لتراكضنا معه  
نجمع الثمار .. نأكلها .. نتقاذف بالنواة بفرح .. ونشبع سعادة .. لكن فتحية  
أمامنا .. تتعذب ! لا طعم للثمر ... ولا للفرح .. حتى حين أقبل زوج أُمى  
ممسكاً بعصاه .. فتوسمنا أن يخضع جنونها تحت لسع العصا .. لكنه لم ينس فى  
تلك اللحظة أن فتحية هى بذرة رجل آخر سبقه وفض بكاراة المرأة التى هى  
ملكه الآن .. يناوئها العصا .. تشد عليها بعنف .. تنال على جسد فتحية المتكوم  
تحت الشجرة وهو يراقب مستصباً بغرور !

\* \* \*

انتصب أمامى ...  
كنت أجلس على طرف السرير بانتظار أن يفعل شيئاً ...  
يده امتدت لتفتح باب الشرفة .. فتحه .. هب هواء مدهش صفع باب  
الغرفة فانطلق ... خرج ... مشى خطوة .. خطوتين ... خطوة أخرى ويكون  
قد وصل إلى الحنساء .. هل سيعدها ؟؟ هل سيقتلها ؟؟ ماذا سيفعل  
بالضبط ؟؟

قبل أن يخرج سألنى :

— لو عدلتها .. أو قتلتها .. هل سترتاحين ؟؟  
لم أشأ لذهنى أن يسافر بى إلى أبعد من حدود الشرفة .. عدت إتابعه ..

رفع قلبه . قبل أن يهوى عليها كنت أصرخ :  
- انتظر .

\* \* \*

لم ننتظر ..

حين انتهالت العصا على جسد فتحية رغم أن ذلك كان بسبب عنادها ..  
رفضنا أن يجرح الجسد أو يموت .. حاولنا أن نمد أيدينا إليها .. لكن الأيدي  
لم تصل .. كان يجب أن نفعل أكثر من امتداد اليد لكن ثورة أمي .. والشر  
المتطير .. أجفل الحركة منا .. كنا ثلاثة .. وفتحية واحدة ... لا نريد أن نموت  
معاً .. علينا أن نصمد .. أن نبقى .. أن نبتعد ... لنقوى ونعود يوماً إلى أماننا  
أكثر صلابة في العود ، وفي الرأي ... وفي الفعل ... عندها لن تقاوم ..  
ولن تسلخ من جلودنا إصرارها ...  
وابتعدنا ...

\* \* \*

ابتعدت قدمه عن الخنفساء .. استدار نحوي ، كان أنفه قد احمر قليلاً من  
البرد الذي فاجأ وجهه ، تجمعت خطواته .. حضنته .. رجوته :  
- أرجوك .. لا تقتلها .  
تناثرت ضحكته .. حضنتي .. - أشهد أنني أحب هذا الرجل -  
فهمني .. قال :  
- أعرف بماذا تفكرين .

أدخلني إلى الغرفة الدافئة حضن رأسي إلى صدره ، عابث شعري المتطاير  
يُعدّل خصلاته :

- لا تخزني .. ما كنتن مسئولات عن موت فتحية ... كانت الريح العاصفة  
أقوى .

- لم أنس المنظر ... رغم أنني كبرت

- كبر الوعي ...

أمسكت بيده .. انزوى إصبعي داخل كفّه وبللت قيصه بنهر من الدموع .

\* \* \*



## ويبقى الصوت حيًّا

تقول الحكاية : إن ذلك الصوت الحزين الباكي كان ينساب عبر نسيم الليل في مكان ما . ليطرق الآذان .. ينسكب فيها انسكاب الماء الحارق على الجسد .. يأتي موجعًا .. مترعًا بالألم .. فيه مزيج من الشكوى .. والابتهاال . وَيُثْلِرُ بِحِدَّةٍ قد تتفجّر يومًا فتصبح جنونًا يشق بكارة الحى الغافى دائمًا على حكايات صغيرة .

هذا الصوت مَوَال بدأ يُسْمَعُ فى الليل ، يفوح صداه مثقلًا بروائح الألم . وفى النهار رغم الضوضاء والصخب ، يُحَسُّه كل من يتحرك وكأنه داخل أذنه .. يشقها . يتزعه من أشغاله اليومية ، مابين اللحظة والأخرى ، كأنه يذكره بأن الصوت ما يزال .

أصبح هذا المَوَال يقلق الصمت .. ويفجّر التساؤلات وهو حزين شاك لا يفتأ يردّد :

«قلبي على طَوِيرٍ خَضَرَ  
شالوه من إيـدى

ماشافته العين لا  
وما رضعه دويدى<sup>(١)</sup>  
عنى عماها ملحها  
والسار على خديدى  
أصرخ وجمر فى الحشا  
وينه ثرى وليدى.

\* \* \*

يوم الجمعة ينفذ شمل المصلين . يخرجون من المسجد كل يحمل مسبحة ،  
تسبقهم آيات الحمد والشكر ، يتوزعون بين الدكاكين القريبة ثم يفرقون  
متوجهين كل إلى بيته . يمرون عبر الأزقة الطينية حيث تبدو النساء الكادحات  
عائدات من «ساحة الصفاة»<sup>(٢)</sup> بعد نهار شاق ، واحدة تحمل قفص الدجاج  
على رأسها . وتدب فى سيرها ، وشجار الدجاجات متواصل فى القفص ،  
وبعض الريش يتطاير حتى يلتصق «ببوشيتها»<sup>(٣)</sup> الكالحة . وأخرى تحمل سلة  
مهترئة فارغة إلا من بعض قشور بيض تكسر وتلّون بلون الصفار الذى تجمّد  
عليه . وأم تحصر - يعرفها أهل الحى - تدسّ بقشيتها المليئة بحاجيات النسوة ،  
وغالبًا ما يكون حجم البقشة فى طريق العودة أصغر مما كان عليه حين خرجت  
فى الصباح . وبائعة الباجلاء تهف على وجهها وقد اختارت ظلا تحت الجدار .  
ولم يكن الطريق يخلو من همهمات .. وسلامات .. وأحاديث عابرة بين النسوة .  
وقد توقف إحداهن أم خضر لتفك بقشيتها وسط الشارع لتتفرّج على ما لديها من  
حاجات .



ويتراكمض الأطفال بين النسوة والرجال . يتطاير غبار الطريق تحت  
أقدامهم . ويشوطون الحجارة التي قد تنفلت وتسقط في قدر الباجلاء ، فتثور  
بائعة وتسب ولا من يسمع .

والبنّيات الصغيرات على رؤوسهن تترع « مطابق »<sup>(٤)</sup> اللبن وهُنَّ قادمات  
من بيت أم على . أو صُرّر الملابس الملونة لقادمات من بيت - أم عبيدى -  
الحياطة ، وقد يتلاسّن أحياناً مع بعض الصبية المهرجين .

\* \* \*

تصب هذه الأفواج في الشارع الطويل ، ومنه تتوزع عبر الطرقات الدافئة  
الضيقة العابقة بروائح الطعام .. والكاز .. وبخار التراب .

وكل من يمر عبر تلك الطرقات كان الصوت يتهادى إليه .. وكثيرا ما شوهدهم  
الناس وهم يرفعون رؤوسهم باحثين عن المصدر الذي يصل منه إلى آذانهم  
ونوافذ بيوتهم ، فتعلو وجوههم دهشة وحيرة ! بينا السؤال يتوالى مع توالى  
الليالى والأيام : مَنْ صاحبة ذلك الصوت المتفجّر المأ بكلمات تؤكد نواح أم  
فقدت طفلها ؟؟

\* \* \*

لم يكن أحد ليعترف من الرجال حين يتحلّقون في المسجد بعد صلاة  
العشاء بأن لهذا الصوت وجوداً . كأن كل واحد منهم يخشى أن تُلصقَ به تهمة  
إيواء هذا النواح ، لكن الفضول التّسوّى كان يوقف سير الأقدام التي كثيراً  
ما تحارّأين تستقر ! فن كل فراغ يأتي الصوت ، ومن كل نافذة يخرج .. ومن

كل حجر ينطبق ، حتى أن بعضهم أخذ يُشيع أن « شيطاناً ما » يفعل هذا ..  
وبعضهم يؤكد وجود امرأة نائحة يستمعن إلى غنائها حتى تبتل بوشياتهن بقطرات  
الدمع .

تقول أم خضر وهى تفك بقشنتها فى حوش أحد البيوت :

- كأن الصوت يأتى من بيت « فلان »

فتضرب أم سليمان على صدرها الذى يكاد قفصه أن يشق الثوب :

- ويه ! عنده زوجتان أراهما كل جمعة فى السوق .

وتحرك أم خضر أناملها بشكل مروحة ثم تستغفر ربها ثلاثاً وتهمس :

- وعنده بنت عانس ! الله أعلم .

فتصفق أم سليمان كفاً بكف :

- لا حول ولا قوة إلا بالله .. ولكن يا أم خضر هذه واحدة تمنى ولدها .

تثُفُضُ أم خضر عباؤها وتهب واقفة :

- الشكوى لله . والله لا ندرى ما هى « السالفة » ( القصة ) .

وتخرج .. تترك السؤال مطروحاً : ترى ! هلى يأتى الصوت من بيت

فلان حقاً ؟؟ وتكاد المرأة تؤكد كلام أم خضر لتريح خاطرهما .. لكن

« عبدة »<sup>(٥)</sup> « أبو وزان » تهزقناعتها غير الكاملة حين تجيء فى المساء لتوصل

غرضاً ! جلست وتجشأت فانتثرت فى المكان رائحة فجعل . فهفَّت أم سليمان

بمهفَّتْها وهى تزم شففتها قرعاً :

- الله هداك يا « غروية » كأنك أكلت عشر شدات من الفجل .

ابتسمت بخجل :

- والله صحيح يا أم سليمان .. رَعَيْتُ اليوم بالفجل دون أن أدري .. وأنا في طريقى ظهرًا من الدكان .. جاءنى ذلك الصوت الشاكي .. تعوذت من الشيطان لأكمل طريقى ، لكن الشيطان جَبَّار ، وسوس لى ، من هنا الصوت ، فأمشى ، لكنه غاب حين وصلت وكأنه يأتى من الخلف ويهمس لى : من هنا .. فأتبعه .. وأحس بالجوع فأكل من الفجل . ظللت ساعة وأكثر حتى كاد يؤذن العصر ولا فائدة ، الصوت يهرب إن لحقته .. ويلحقنى إن تركته .. و.... قاطعتها أم سليمان :

- ما الذى يجبرك ؟ غيرك فعل ما فعلت .. ولا أحد حتى الآن استطاع أن يعرف صاحبة الصوت أو مصدره .  
فتفاخرت « غُرُوبَة » بصوت أْبَح :

- ويه .. يرحم والديك ، بدأ الناس يتهايمسون . وتفجّر فضول أم سليمان بفرح :

- بماذا ؟ من تهامس ؟؟  
تهربت غروبة من ذكر أى اسم :  
- الناس .. أقصد بعضهم .. وحتى عمى « أبو وِزَّان » سمعته يهمس أن الصوت يأتى من بيت « أبو شهاب » .  
ثم نفضت ثوبها : والله أعلم .  
قالت أم سليمان :  
- تقولين « أبو وِزَّان » قال هذا ؟

وانتثر رعباً على وجه غروية :

- الله يخليك يا أم سليمان . لا تقولى أننى نفوّت بهذا .. الله أعلم .. قلت  
لعمنى حين لا متنى على تأخرى ونقص الفجل الذى معى أننى كنت أدور  
وأبحث عن مصدر الصوت ، وأننى فعلاً لم أتعرف أو أقنع بمكان ..

- وماذا قالت ؟

- سحبت الفجل من يدى بغيظ . وعند الغداء سمعتها تحكى قصتى «لأبو  
وزّان» ، وهنا همس بما قلته لك .

وعندتها أم سليمان بالألا تنطق بما سمعت ، وحين تركت غروية حوش الدار ،  
كانت أم سليمان تقف وفى خيالها خواطر ، وصور ، وتبيّئات ، ثم مشت وهى  
تهمس لنفسها : الشكوى لله الشكوى لله .. سأخبر «أبو سليمان» بما قاله «أبو  
وزّان» .

\* \* \*

صارت الأغنية تتردد على أفواه النسوة وهن يخبزن خبز الرقاق .. أو يغسلن  
الثياب ، حتى وهن يفركن القدور السوداء بالرمل . وانتقلت العدوى إلى  
الأطفال صبية وبنات ، فأخذن يرددنها ليل نهار رغم صراخ آبائهن فى  
وجوههن ووجوه أمهاتهن اللواتى يرددن الأغنية .

وأصبح الأمر اعتيادياً .. المارّون يسمعون ، يبحثون ، ثم يعجزون . والنسوة  
بفضولهن يخترعن كل يوم حكاية ، والرجال يستغفرون ويهربون من مناقشة  
الموضوع . حتى كاد الناس بعد ذلك أن يتجاهلوا الأمر .. أو ينسوه تماماً .

ذات صباح تعكّرت السماء بالغبار الأحمر . كان «ناصر» يمسك بيد أخته «وضحة» يقطعان الطريق من البيت إلى المدرسة . يوصلها أولاً ثم يكمل طريقه إلى مدرسته ليعود بعد الانصراف ثانية ، فيجدها تنتظره حاملة دفاترها ، وباليَد الأخرى عصا من الخلاوة تمصّها بتلذذ ، تعطى له نصفها ما أن يصل .  
فى ذلك الصباح تأخرا فى النوم .. لذا كان يجرّها من يدها راكضاً .  
صرخت :

- لماذا تركض؟؟

- لقد تأخرنا ..

وتولست بصوت طفولى :

- لا تذهب من طريق «الحوطة» .. أريد أن أمرّ على الدكان .

كررت وهو يجرّها :

- لقد تأخرنا . اشترى الحلوى من قرب المدرسة . وبإصرار قالت :

- لا أريد .. لا أريد ..

صفعها صفعة خفيفة على وجهها .. وشدّها إلى الحوطة ، يقطعانها إلى الشارع الآخر .

كان ملح السماء الأحمر يزداد .. والهواء يتلاعب بأوراق الأكياس وبعض القاذورات ، والحوطة خالية تماماً إلاّ من عترة تُركت لترعى بعض الورق والفضلات .. وهما يركضان رغم الحصى والعلب الفارغة . وفجأة هوت أخته منكفئة وصرخت :

- إنك تسجبنى .

- لقد تأخرنا . هيا .. قومي .  
وانحنى ليرفعها عن الأرض ، فاصطدمت عيناه بكومة من التراب المبلل ..  
وقد تبعثر بفعل سقوط أخته عليه رفعها .. نحأها جانباً ، نظر إليها وتساءل :  
ما هذا ؟  
- فصرخت فيه كأنها تود الانتقام منه :  
- هيا .. لقد تأخرنا .  
وضع سبابته على شفتيه :  
- هس . لنر ما هذا أولاً .  
فجأة عوى كلب ، فارتجفت الصغيرة ، لكنه هدأها .. وجلس بقربها ..  
وأخذاً يتأملان الكومة الرطبة .. وتساءلت العيون الأربع .. تباعدت ..  
وتلاصقت .. ثم عادت تعانق كومة التراب .  
مدّ يده .. أخذ ينش الكومة فصاحت أخته بصوت مرتجف :  
- لا .. لا يا ناصر .. يمكن أن تكون حيّة .  
هدأها :  
- الحية لا تدفن نفسها هكذا .  
ويده لا تزال تنبش .. وتنبش . حتى بدأت تغوص بعد ذلك . وإذا  
اصطدمت بشيء ، التفت إلى أخته :  
- وجدته .  
شهقت :

- ما هو ؟؟

- كتر !

فرحت :

- كتر ؟ ذهب يعنى !

قال وهو يكمل رفع التراب :

- ذهب .. فلوس . المهم وجدنا كترًا . وحفر .. ثم مد كلتا يديه الصغيرتين ، وانتشل صرة من القماش الأبيض . نفخ عنها التراب ووضعها بينه وبين أخته :

- هيا .. فكي هذه الخيوط .

وانفجرت الصرة عن مشهد جعلها يقفزان صارخين بصوت واحد : يُمه .. يُمه ..

تدلجت أطرافها لبرهة .. والكلب الذى كان يعوى فى آخر الحوطة اقترب .. وصلب أذنين جرياوين ولسانه يلهث ، ثم اقترب . وأخذ يشم الصرة ويرفع رأسه نحوها .. ثم يدور .. ويدور بينما عيناها تتقاذبان الخوف والسؤال .  
نطق أخيرًا بكلمات عوجاء :

- هذا ولد .

هزت رأسها بإيجاب ، ولمح دمة على خدّها تلوّنت بلون « الطوز »<sup>(١)</sup> الأحمر .

طرد الكلب بحركة من يده .. ولمّا لم يتحرك أمسك بعلبة فارغة ، قذفه بها .. ثم بعضا . لحقه حتى ابتعد قليلاً ، وعاد إلى أخته التى مدت أصابعها تلمّس جسد الطفل الطرى . وحين دنا منها سحبت يدها خجلى . فأخذ

بدوره يتفحص الطفل . يشد ساقيه ويديه .. وقال :

هذا ولد ميت .. ولكن !

وبكت :

- وای .. أنا خائفة .. هنا يدفنون الأموات ؟؟ لامس كفها الصغير ليزيل

بعض هلعها :

- لا .. يدفنونهم في المقبرة .

وأشارت بإصبعها :

- وهذا ؟؟

- لا أدري .

ثم انكفأ يلفّ الطفل بقماشه ، وغيره من الصبيّة والبنات بدأوا يهرعون عبر

باب الخوطة . يقتربون .. يقتربون . وقبل أن يكمل وضع الطفل في حفرة

كانوا يتحلّقون حوله متسائلين .. لكنه صرخ فيهم :

- ابتعدوا .. لا عليكم في هذا الأمر .

وثار صراخ الأولاد .. ثم امتدت يد أحدهم لتشد «ناصر» من فوق

التراب .. وسحب الصرة البيضاء وفتحها أمام أعين الجماعة التي ما كادت ترى

المشهد حتى تطايرت رعباً . وتراكموا إلى بيوتهم ليعلموا الخبر . فشدّ على يد

أخته .. وألوى راكضاً هو الآخر ناسياً المدرسة التي خرج إليها مسرعاً هذا

الصباح .

\* \* \*

سرى الخبر سريان النار في الهشيم . وخلال وقت قليل كانت الخوطة تعج



بعشرات الرجال والنسوة وبعض الصبية الحفاة في دشاديش النوم المقلّمة القصيرة يفركون أعينهم التي لم تشبع من النوم .

أخذ بعض الرجال يهش الجموع ، لكن الجموع تبتعد من جهة لتزدحم من جهة أخرى . وبدأ شجار بعض الصبية ، وكان ثأراً قديماً قد استفاق فجأة بينهم . بينما تقرص أفخاذهم وزنودهم أصابع الأمهات اللواتي يردن أن يسمعن كل كلمة ينطق بها الرجال المتعلقون حول جثة الطفل التي أصبحت مشاعاً لكل الأعين .

قال أحدهم :

- نواربها التراب .

اعترض آخر :

- هذه ليست مقبرة .

تنهد ثالث وتعوذ :

- من الذى فعل هذه الفعل ؟

صرخ صوت :

- أقسم أنه « ابن حرام » أرادوا التخلص منه !

هذأه رجل :

- سمّ بالرحمن . لا يُقسِمُ قبل أن تعرف الحقيقة . لكنه احتدّ أكثر :

- حقيقة .. أية حقيقة ؟

وأشار بيده إلى الجثة وأكمل :

- الحقيقة أمامك .. ولست أعمى .. جاهل ميت مدفون فى حوطة .

عاد يهدئه :

- صحيح .. صحيح .. لكن يُمكن !!
- لا يمكن .. ولا يصير .. هذه فضيحة تتوارى وتنكشف .
- كان الغبار الأحمر قد تزايد ، والهواء يرتفع ويهبط فيحمل معه الورق ..  
وبقايا القمامات . حتى عباءات النسوة بدأت تتطاير ، ولمح أحدهم ساق امرأة  
فأقترب منها :
- أنت .. خذى ولدك وارجمي إلى بيتك ..
- ولم يتنه حتى كان لسانها ينفلت بالصراخ :
- ألم تجد غيرة ؟ كل هؤلاء - وأشارت بشكل نصف دائرة - كلهن ولا تجد  
غيرة .. أم أنني واحدة من أهل بيتك لتتحكم بي ؟
- حمل الرجل نفسه وابتعد هيز رأسه .
- أخيراً جاء صوت أبو يوسف .. الرجل التقى :
- يا جماعة الخير ! صلوا على النبي . نحمل الطفل إلى «الدختر»<sup>(٣)</sup> أو إلى  
«الأمن العام» ونسلمه هناك والحكومة تتصرف .
- وتدخل أحدهم :
- لماذا لا ندفعه يا «أبو يوسف» وأحدنا يخبر الحكومة . حرام أن نحمل جثة  
الطفل بهذا الشكل . وافقت عدة أصوات :
- هذا أفضل .. هذا رأى معقول .
- وتلفت «أبو يوسف» يستعرض الجموع .. والصغار وأشار :
- وهؤلاء الناس ! هل سيزكون الأمر بسلام ؟
- صدقت يا «أبو يوسف» صدقت .. صدقت .. همهمات انطلقت ، وكل

- وجه يستعرض الوجوه الأخرى ، وأبو يوسف يقترح :
- هل يتكفل أحدكم بالذهاب إلى الحكومة .. وآخر بحراسة الجنة ؟ أما أنتم ....
- وشق طريقه بين الناس :
- أرجوكم .. كل إلى بيته .
- وحين لمح وجوه بعض الأولاد الكبار صرخ فيهم :
- وأنتم .. لماذا لم تذهبوا إلى مدارسكم ؟
- تراكض بعضهم بينا ردد باقون :
- الدنيا « طوز » عمى أبو يوسف .
- هشهم :
- زين .. زين .. يا الله .. كل واحد على بيته .
- تفرق الجمع .. بقى اثنان قرب الجنة التي واروها التراب ، وانسحب ثلاثة في طريقهم إلى التبليغ .
- لم تتفرق النسوة .. سرنَ جماعات .. وأحاديثن تطاير مع تطاير الغبار والقاذورات .. وكل واحدة تتساءل :
- هل يكون الطفل ابن فلانة .. أو فلانة .. أو فلانة ....
- ففي الحى المجاور نساء معروفات ! لِمَ لا تكون إحداهن قد أرادت الخلاص من الطفل ؟ وتساءلت أخرى :
- ولكن ! لماذا في الحوطة .. لماذا لم تدفنه في حوش بيتها ؟
- شيء عجيب . هذه حكاية لم تحظر على البال ! ولكنى أؤكد أنه ابن حرام كما قالوا ، وإلا لما تخلصوا منه .

- سخرت واحدة :
- كأنك ترين ابن حرام لأول مرة ! كم من طفل وجدوه مع « مشيمته » في  
« البلدية » بين الأوساخ !
- صحيح .. لكن هذا ميت .. وربما مختوق !
- الخوف .. الخوف يا أم حمد .. أو ..
- التفتت إحداهن إليها :
- أو ماذا ؟
- الله أعلم .. ربما يكون ابن عائلة ! !
- وضعت النسوة أكفهن مفروشات فوق رؤوسهن ورددن :
- الله اكبر .. الله أكبر .
- وشهقت واحدة بصوت عال :
- يا جماعة .. تذكرت .. أين كنَّ عن الصوت ؟؟
- أي صوت ؟ ماذا تقولين ؟
- انطلقت التساؤلات من كل الألسنة بفضول ، وكأنها تترأ من جهلهن .
- قالت المرأة :
- أيُّ صوت ؟؟ كأنكن نسيتم !
- وأخذت تردد :
- « قلبى على طوير خضر ..
- شالوه من إيدى ... الخ »
- وقاطعتها إحداهن مختدة :
- بَسْ .. هذا غباء .. الصوت الذى نسمعه صار له شهور ..

- اعترضتها أخرى :
- ما المانع أن تكون أم الطفل ؟
  - عادت الأولى تدافع عن وجهة نظرها بذكاء تفخر به :
  - لقد رأيتهن الطفل : هذا مدفون جديد .. وذلك الصوت قديم .. فهل تبقى جثة الطفل سليمة هكذا ؟؟
  - ساد صمت .. كأن كل واحدة تلعن غباها .. وتهايمن :
  - صدقت .. صدقت .
  - عادت الأولى وكأنها تريد أن تعيد ثقتن بأنفسهن :
  - كلامكن عن الصوت صحيح .. والله أعلم .. ربما أخذوا من صاحبتهم الطفل عنوة .. ودفنوه لكنه على أية حال ليس هذا الطفل .. هذا له أم أخرى أرادت التخلص منه .. ومن يدرى ربما أهلها ... ثم ضحكت :
  - ومن يدرى أيضًا .. ربما غداً نسمع أغنية أخرى . قالت إحداهن وبوشيتها تلتصق بفمها :
  - إن كانت له أم مغدورة .. فما أن نسمع حتى تهرع إلى المكان .. أما إن ...
  - وأكملت أخرى :
  - إن كانت هي وأهلها الذين تخلصوا منه فلن تتحرك .
  - غداً نسمع الأخبار .
  - قالت واحدة بحسرة :
  - من أين يا حسرة ! الحكومة ستأخذه وتدفعه وتضع قصته كما ضاعت قصص أخرى قبله .

\* \* \*

ولم يكن مقدراً أن تنام هذه الحكاية كما نامت قبلها حكايات .. فحين كان المارة يسمعون بكاء طفل في أماكن البلدية المنتشرة في الأحياء . أو عند أبواب المساجد .. أو في السوق يجدون طفلاً في « زيل »<sup>(٨)</sup> تنور الأقاويل .. تلمع الشاتعات ثم تصدأ بعد ذلك وينام عليها الغبار والنسيان .

\* \* \*

استيقظت الآذان وصدى الصوت النائح يشق المسافات ، يعبر إلى الوجدان ، يهز النوم الراقد في الأجفان .. ومنذ كبر المؤذن داعياً لصلاة الفجر كانت الأغنية الحزينة تنطلق كصلاة تشق رقعة السماء التي هدا نريفها الأحمر . لم يعد الصوت وهماً أجرد .. ولم تعد الأغنية مجرد صدى .. إنها حقيقة تؤكد نفسها اليوم ، وتمزق شرايين الصباح المتنفس بعد ليلة طال فيها السهر .. وكثرت الأقاويل .. والتخمينات .

نفض الناس عنهم ذبّ الأجساد ، والرجال في طريقهم إلى المسجد تغيرت خطواتهم .. ساروا باتجاه الصوت الذي تأكدوا أنه حيّ يصرخ من حولهم .. ويقرب كلما اقتربوا .. وسجبت النسوة عباءاتهن وخرجن ، يلتقي فوج بآخر ، يلحق بهن الأطفال والصبية .. والرضع على الأذرع لم يغتسلوا من بولهم بعد .. وربما لم يرضعوا . الصباح يحمل الرنة الحزينة .. لا يسمع سواها ، وسوى صوت الأقدام .. يحذف أحدها علبه مبعوجة فتشق ثم تحرس .. وقدم يحذف عصا فتطير مستغيثة .. وخبطت قدم في « براز » أحد الصبية .. فسحق نعل حذائه على التراب الحشن ، وفاحت رائحته القديمة ، فابتعد الناس مهرولين

كمن تلحقهم عصا إبليس .. والصوت يقترب .. ويقترب كلما دنوا من  
الحوطة .

وعند بابها توقف الجمع .. كان الصوت راقداً فيها . عارياً هذه المرة ..  
يؤكد حقيقته بنواح مذبوح .

اندفع الفوج .. وعلى التراب الرطب .. كان جسدها ملقى .. عباءتها تنسدل  
عن نصفها العلوى فتبدو جديلتان فاحمتان تمتزجان بالتراب .. وصوتها يمتزج  
بدمعه ، جباراً كأنه يعتف هذا العالم الراقد تحت جذور الخوف وأتربة النهارات  
المرّة المتعاقبة .

لم تجرؤ امرأة من قبل أن تعلن عن نفسها ، واليوم ! ها هي قد انكبت على  
القبر الفارغ ! تنبشه بأظافرها .. مرّقت رمله .. وطحنت حصاه ، وحين لم تجده  
فاح عواؤها البائس ..

ورددت الأغنية التى ربما كانت لأم مفجوعة قبلها .. أو لأمهات تواد  
قلوبهن فى الليل تحت تراب الأرصفة الشرهة للحم الخطايا الدائمة .

انكفأ رجلان .. رفع أحدهما العباءة ليستر وجهها .. وأمسك الآخر  
بذراعيها ليقنعها من على التراب . لكنها التصقت بالأرض التصاقاً يتحدّى  
الأذرع القوية الممتدة .. غرست كفيها فى القبر المفتوح وصرخت :

- دعونى .. أموت . لقد قتلوه .

لم يكن همّ الرجال مُسلطاً على معرفة المرأة ، فهم حتى لو شاهدوا وجهها  
تحت أشعة الشمس المشرقة لما عرفوها .. لكن فضول النساء كان يغلى .. كل

تريد أن تلمح ولو طرفاً ، عيناً .. أو شفة أو خدّاً .. لعلهن يجلسن من  
تكون .

لكنها لا ترفع وجهها .. ولا تشعر بوجود من حولها .. لا تحس بالفضول  
القاتل المطل من العيون ، لا ترى حولها إلا أشباحاً لأيد مزقت البارحة قلبها ..  
واختطفت الطفل من بين فخذين استسما للعشق ذات ليلة .

\* \* \*

تجذرت المرأة في الأرض .. تسكب عصارة الروح الجريحة .. وتنبع آهاتها  
كما تنبع نافورة دم من أرض داستها أقدام دخيلة نجسة .. وصوتها يعلو ..  
وينخفض مبللاً بالأسى .. ممزوجةً بنغمات كأنها حدّ السيف يذبح سامعيه ..

«أصرخ وجمر في الحشا ..

هذا ثرى وليدى

هذا ... ثرى وليدى ..»

وتهطل دموع الرجال الذين يحاولون انتشالها .. لكن الجسد ثقيل .. كأن  
آلاف الرمال والأتربة والحصى دفنت فيه .

\* \* \*

كان النهار قد شعشع .. جدائل باهتة بلون الوجوه .. ونواح النسوة ..  
يتقاطر .. كل تقف في مكانها تغطي صفحة الوجه ببوشية سوداء رطبة . لم تعد  
واحدة تبحث بين الفوج عن شبر تطل منه لتعرف وجه المرأة . كان الحزن قد  
تدفق إلى صدورهن . فبات فيها الفضول .. ماذا يهم أن يُعرف وجه المرأة ؟ كان



الغضب يلزم أنات البكاء .. يودّ لو يصرخ في وجوه الرجال المتحلّقين ... أن يشير بالأصابع ! أن ينفلت كما تنفلت أنات المرأة ! وكما انفلتت جدائلها السوداء تتعفّر بتراب الأرض .. بملحها الذى رُسَّ على جثة الطفل ... وكانت العيون تتساءل : أين ذلك الرجل الذى شاركها الفعل وزرع البذرة ؟؟ لماذا لا يأتى كما جاءت !! ولا يبكى .. كما نبكى .. ويتمزق .. كما تتمزق جوارحها ؟؟ لكن الغضب لا يخرج .. والصرخة حبيسة تحشى الانفلات لترتاح من ثقل سنوات الصمت .

حاولت إحداهن أن تشق طريقها .. وتقرب حاملة طفلها الرضيع .. ودّت لو تمدّ يدها به إليها .. وتستحلفها بالله :

- خلى .. هذا هو ابنك .. لم يمّ .

لكن الخوف المنسوج كخيوط العنكبوت أوقف المحاولة .. وكذلك الصرخة الداوية التى ارتعد لها الفوج كله .. واستفاقت منه عيون الرضع النائمة . صرخة المرأة مزّقت وجه الفجر المتفتّح .. ثم ارتدت سكينٌ شقت الصدر الذى تمزّق ثوبه .. وانكفأت بلا حراك .

\* \* \*

حين تفرقت الجموع تسحب خطاها بحزن تحمل عثار طريقها الذى ما استطاعت جدائل الشمس أن تنيره .. كانت تنهادى إلى الأسماع تلك الأغنية ! حزينة .. لا تزال .. لكنها شديدة الوقع .. تخترق الآذان وكأنها تطرقها بآلاف المطارق .. توقف فيها شيئاً .. تذكر أن الصوت حى .. وأنه .. سيقى .

وتقول الحكاية إنهم حين جاءوا ليحملوا جثة المرأة .. وجدوا حليب ثديها  
المكتنزين يصب في القبر .. ويروى التراب .

دفنوها .. دفنوا سرًا عاش بصدرها .. ومات معها . لا أحد يعرف  
الحكاية .. وحدها فقط كانت تعرفها . ولو بقيت عيناها مشرقتين على هذا  
الأفق الجاحد لروت حكايتها التي تقول : .....

.....  
.....  
.....

## إشارات :

- |                 |  |
|-----------------|--|
| ١ - دويدى       | تصغير لكلمة - ديد - وتعنى ثدى .            |
| ٢ - ساحة الصفاة | ساحة رئيسية في مدينة الكويت .              |
| ٣ - بوشية       | غطاء الوجه للنساء ولونه أسود خفيف .        |
| ٤ - مطابق       | جمع - مُطَبِّق - وهو وعاء خاص لوضع اللبن . |
| ٥ - «عبدة»      | خادمة مملوكة . غروية اسمها .               |
| ٦ - الطوز       | الغبار الأحمر الذى يأتى في الصيف .         |
| ٧ - الدختر      | الطبيب .                                   |
| ٨ - زيل         | قَمَّة .                                   |

## ينفصل الوطن .. تنفصل الطريق

للجرس نغمات خاصة كأنها رقصة سجيبة تنطلق ، ونهاية اليوم الدراسي  
تعني الحرية لمساجين الفصول الدراسية الساخنة ، ويخلو الهرب بعد يوم رطب ..  
بدبق تتلاصق فيه الثياب بالجسد .

في دقائق انفلتت الطالبات من الصفوف كما تنفلت الخيل المنتظرة إشارة  
السباق . أصوات أقدامهن المتراكضة على الأرض تثير أنغاماً حماسية تختلط مع  
الأنغام المنبعثة من السيارات المنتظرة . وتنسجم مع اللحن الذي ينبعث من  
راديو الباص .

تقافزت الطالبات إلى جوفه بعضهن ضاحكات تنائر خصلات شعورهن  
على جباههن الرطبة .. وبعضهن يبدو أثر دموع في عيونهن . ذلك يعني أن  
نتيجة اليوم الدراسي لم تكن مرضية .

أسراب .. أسراب .. تدلف إلى بطنه حتى كاد يمتلىء إلى عُنقه . صارت  
الخيول المنفلتة سردينا يتلاصق رغم الرطوبة ، وانبعثت رائحة العرق ، ورائحة  
الجوارب ، وأحذية الألعاب المتهترئة .

- أف .

زفر السائق . سحب منديله وغطى به أنفه ينتظر اكتمال العدد . بينما صراخ الطالبات وأحاديثهن تضيع مع الأنغام التي كانت مسموعة من شبابيك الباص قبل امتلائه .

صاح السائق منادياً بعض الطالبات المتجمعات حول بائع «الآيس كريم» فَهَرَعْنَ إلى الباص الذي ماكاد يبتلع أجسادهن حتى أغلق بابهُ .. وحرك السائق المفتاح . وقبل أن يتحرك .. امتطت سيارة فارغة أمامهُ . وسدت عليه الطريق . ضغط على البوق .. مرة .. وثانية .. لم يستجب سائق السيارة الفارغة .. ضغط مرة ثانية .. كأنه يحذر من غضبه لكن السائق الآخر لم يتزحزح .

\* \* \*

الحر شديد .. الباص يكاد يستفرغ ، الرطوبة .. أنفاس الفتيات .. صراخ بعضهم يراجعن مادة الجغرافيا التي كان يكرهها مذ كان تلميذاً . التفت إليهن وقد بدأ يفقد أعصابه :

- اسكتن يا بنات .. ارحمئني .

تصاحت الطالبات ، تغامزن عليه .. وعدن إلى ثرثرتهن ولكن بصوت أقل حدة .

يده على البوق ثانية .. ثلاث ضغطات .. طوط .. طوط طوط .. لكن السائق كاللوح لا يتحرك .. ومن نافذة السيارة الخلفية أطل وجه امرأة هندية ملأ الشيب مفرقها ومن عينيها أطلت نظرة ضجر .

ما دام وجه الهندية قد أطل فلا بد أن السائق قد تنبه إليه .. فتبادى في الضغط على البوق .. أمله ينجيب . يزفر .. يضغط .. يمسح العرق .. يضغط .. تمد الهندية ذراعاً ذابلاً زمت أطراف أصابعها وحركت يدها بإشارة تعنى .. مهلاً .. مهلاً .

لكنة لم يتمهل .. ألقي بكل ثقل كفه على البوق .. ضغطت البنات على آذانهن .. بينما تطايرت أخريات كُنَّ قد التصقن بالباص متحاذن من في داخله .. وتفقن على بعض الأشياء للغد .

\* \* \*

أخيراً .. ترجل سائق السيارة الفارهة .. كان يبدو وكأنه فقد أعصابه .. دنا من الباص .. خاطب السائق من نافذته المفتوحة :

- يا حمار ! لماذا تنهق ؟؟

تضاحكت الطالبات .. كأنهن يشمتن بالسائق الذى يُخرسهن دائماً ..

ولكى يدارى خزيه من الطالبات تكلم بهدوء :

- ساعحك الله .. أريدك أن تفسح لى الطريق .. لقد عطلتنا .

لكن السائق الآخر هزَّ يده فى الهواء وزعق :

- تعطل . ما الذى يحدث لو تعطلت ؟ هل تحمل ابن وزير أم ابن رئيس ؟؟

هذأه السائق :

- يا أحمى .. أرجوك .. الدنيا حر .. والبنات لهن أهالى ينتظرون .

لكن الآخر رفض مهدداً :

- لن أمشى .. ووالله لو نفخت بوق باصك هذا ثانية فسأجعل سيدى يأتى

- غداً .. ليحطّم رأسك . تنهّد سائق الباص مستسلماً .. أطفأ المحرك .. مسح  
بمنايله المتسخ عرق وجهه والتفت إلى الطالبات :
- هيا اسكتن .. ستبقين في هذا القرن حتى يتكرم هذا السائق المغرور ..  
ويتحرك .
- لاح يأس على وجوه الطالبات .. تهايمن :
- هذا سائق غنيمة .
- تناهى للسائق همس الطالبات .. التفت إليهن :
- غنيمة من ؟ ابنة من ؟؟
- لم ترد عليه واحدة .. انكش صامتات .. بينما تعرقت ثيابهن حتى بدت  
وكأنها مغسولة بالماء .
- مرّت نصف ساعة قبل أن تقبل من داخل المدرسة طالبة سمراء .. في الرابعة  
عشرة من عمرها .. تبدو أنيقة .. مرتبة .. حذاؤها رغم تعب النهار يبدو  
نظيفاً .. تربط جدليتها بشرائط بيضاء ناصعة .
- آه .. يبدو أنها بنت أكابر .
- قال سائق الباص وهو يلتفت بنصفه إلى الطالبات .
- ردت طالبة :
- أبوها تاجر كبير مشهور .
- ومغرور .. وسائقه مغرور .. وطبعاً ابنته مغرورة . تصايحت بعض الطالبات  
باحتراج :
- لا .. غنيمة ممتازة .. متواضعة .. طيبة .. و .. و ..... هزّيده مهدداً :
- طيب .. طيب .. الله يرزقنا كما رزقها .

تفوه بأمنيته .. ولم يكن يتصور أنها مخزونة في قلوب الطالبات المكذسات ..  
فوجئ بأصواتهن تردد :  
- آمين ....

\* \* \*

الطالبة السمراء تقترب . الهندية ذات الذراع الداوي تترجل تحمل حقيبة  
الطالبة ، تفتح لها الطريق . السائق يتزل من السيارة يفتح الباب .  
دلفت الفتاة .. استرخت .. نوافذ السيارة مغلقة .. في الداخل مكيف  
هواء يعمل .

تحركت السيارة .. فتحرك الباص . مدّ السائق يده أدار جهاز الراديو فجاء  
صوت المذيع أجش يقرأ نشرة الأخبار .  
- أف ..

زفر السائق ، وأحمد صوت المذيع وهو يزفر :  
- أخبار الشوم ..  
سألته إحدى الطالبات :

- ليش ؟ ما بلّك تسمع أخبار الوطن ؟؟  
- إيه .. خلوها مستورة .

كان الطالبات عرفن سرّ التنهيدة الطويلة العميقة بدأن يصفقن ويغنين :  
« هو ذا الصوت من الأرض السمراء آت .... من حقلى .. من شمسى ..  
من آلام شعبي آت » شدّه الحنين إلى الوطن .. دمعت عيناه .. لاحظت  
إحدى الطالبات الدمعة الحزينة المنهارة على خدّه :

- لماذا تبكى؟؟

- تذكرت البلد .

- هل تذكرها جيداً ..

- بالطبع .. غادرتها حين كان عمري عشر سنوات .

- آه ..

تهندت طالبة وتابعت :

- نحن لا نعرفها .. أهلنا فقط يتحدثون عنها .. فنحنها . هز رأسه :

- الوطن غال يا بنتي .. الوطن غال

يرتفع صوت الطالبات بنغمة شجيّة :

باسم الحرية .... راجعين يا فلسطين ...

فلسطين عريّة ... ..

الصوت يعلو .. الحريزائد .. الشمس المحرقة ، وتحلّق إشارة المرور الحمراء

بوجه السيارات .. أشار سائق الباص إلى الطالبات :

- هس .. اسكتن .. بلاش أغاني .

كانت السيارة الفارغة التي تحمل غنيمة ملاصقة في تلك اللحظة للباس ..

تدلّت رؤوس الطالبات إلى السيارة أطل وجه غنيمة من خلف الزجاج ..

ابتسمت ، أشارت بيدها تحيي .. فتحت النافذة .. تصايحت الطالبات .. كل

تريد أن تقول كلمة .. قبل أن ترد غنيمة على كلماتهن كانت الإشارة تبتلع غضبها

الأحمر .. ويتبدل إلى أخضر .

\* \* \*



الطريق الممتد واحد .. أخذ سائق الباص يسابق السيارة والطالبات  
يعنين .. فراحات .. وحين تسبقهن السيارة ترتفع أصواتهن باحتجاج :  
- ياه .. أبو راجح الله يخليك اسبقها .. اسبقها .

يتعجب :

- إيه ! أسبق كاديلاك ؟ هذا باص «كحيان»<sup>(١)</sup> . ويختلط رجاؤهن :  
- ولو اسبقها ..

- بس .. أمامنا إشارة ثانية .

يقف الباص ... السيارة بجانبه .. تطل الطالبات وهن يرددن باقي الأغنية  
الحماسة :

«وجئت طلقة .. وجئت صفعة ...

لكل ضمير خائر ...

تركت النجم .. تركت الآه .. تركت النعم الحائر و.....» .

غنيمة تفتح نافذتها .. تطوف على وجهها سحابة حزن وتمن . يلتفت  
سائقها يشير لها أن تغلق النافذة التي تسرب منها صدى أغنية شعبية وطنية .  
صوت الطالبات يرتفع يتحدى ارتفاع النافذة الزجاجية . غنيمة تبسم  
هن .. تشير بحماس .. انسجام هادئ يطل من عينيها .. وألفة .

\* \* \*

عند آخر إشارة يفترق الباص عن السيارة التي دلفت إلى أحد الأحياء  
السكنية .. ويتحول الباص إلى منطقة «حولى»<sup>(٢)</sup> حيث ستبدأ رحلة توزيع  
الخبول إلى اصطبلاتها .

الحياة عامرة .. المحلات التجارية .. البقاليات المتناثرة .. المارة تكتظ بهم  
الأرصفة .. رجال .. نساء طالبات .. وطلبة .. يهرولون هرباً من الحر إلى  
البيوت ، المطاعم ومحلات شئ الدجاج تفوح رائحتها الذكية فتثير إحساس  
الجوع في نفوس الطالبات .. يثلمظن . تتمنى إحداهن :

- ليت أُمى تكون طابخه دجاجاً ..

قالت ثانية :

- اليوم ستغدى «مجدرة»<sup>(٣)</sup>

شهقت أخرى :

- ياه .. أنا أحبها ...

بينما تأففت أخرى :

- يوه .. أنا أكره هذه الأكلة .

لم توافقها كثيرات من الطالبات .. حتى سائق الباص :

- هذه أكلة غنية .. إنها «مسامير الركب» ضحكت الطالبة :

- لا أريد مسامير لركبي ، أنا قوية .. ألعب الجمباز أحب الدسم .. دجاج .

لحم .. بازيتا .. بطاطا ..

- إيه .. صحتين على قلبك

قالها السائق وتوقف عند أول المنعطفات وفتح باب الباص :

- هيا .. الى عليهن الدور ...

تدافعت خمس طالبات .. وما أن أغلق الباب حتى أخذت من في الباص

يشرن بأيديهن مودعات لصوحيحاتهن متمنيات أن يأتي دورهن بسرعة .

خَفَّ حمل الباص .. أخذ الهواء الرطب السجين حرته .. لطفَ الجو قليلاً .. انخفض صوت الطالبات .. يتحادثن أحاديث مختلفة ويقلدن بعض مدرساتهن أو يشتمن بعضهن .. ونسين في غمرة مرحهن التأخير الذى حدث حين أَصْبَرُ سائق غنيمة على الوقوف .

\* \* \*

سيارة غنيمة تبدأ رحلتها فى الحى السكنى .. الهدوء يجيم على الشوارع .. لا محلات تجارية ! ولا بقاليات : لا رائحة دجاج ولا زعتر تفوح .. النظافة واضحة والحشائش المزروعة تلفظ أنفاسها الخضراء فى هذا الحر الشديد .. أغصان الشجر تلبت أوراقها ... فلا نسمة تهزها .. ولا حركة بشر .. ولا أغنيات تبعث من شبائك باص !

أحست بالضجر .. لا يزال سمعها يحمل رنة الأغنية الحاسية .. قالت فى نفسها :

« غداً .. سأطلب منهن كلمات الأغنية . »

فرحت لهذا القرار وهى تتذكر وجوه الطالبات ، الفرح المستر على وجوههن رغم تكلسهن فى باص غير مكيف .. وتنهدت ..

\* \* \*

فى البيت .. فاحت رائحة الطعام الشهى .. رغم هذا قالت لأُمها :  
- لا أحس برغبة فى الأكل .

وانهال دلال الأم .. أخذت تعددها الأصناف المطبوخة والمقبلات .. لكن

الفتاة ظلت صامته .. تجول عيناها في أنحاء المكان .. كل شيء نظيف ..  
جميل فخم .. رائحة العرّفوح كما تفوح رائحة الطعام . وصوت أمها يأتي  
كأنه من البعيد .. في أذنيها لا تزال تتلاعب موسيقى الأغنية التي لا تحفظ  
كلماتها يتأوج معها صوت ضحكات الطالبات وفرحهن الصادر من القلب .

تطلعت في وجه أمها وإذا سحابة خوف تنتشر عليه :

- غنيمة .. ما بالك ؟؟ هل أنت مريضة ؟؟

- لا يا أمي ..

- إذن .. ما بالك صامته ! ولا تريد أن تأكل ؟؟

- أنا أحلم .. أحلم يا أمي ..

واستلقت على المقعد الوثير وسؤال أمها ينطلق فرحاً :

- تحلمين ! بماذا ؟؟ قولي كل أحلامك تتحقق حالاً .

تلاعب حزن في وجه الفتاة .. أكدت لأمها :

- إلا هذا الحلم .

وحشتها أمها :

- كل الأحلام أحققها لك ..

اعتدلت :

- إذن .. أريد أن أركب الباص مثل بنات حوّلى .

و.....

انكش وجه الأم .

\* \* \*

١ - كحيان كلمة فلسطينية بمعنى « قديم ومهترئ ».

٢ - حوّلى - منطقة أغلب سكانها من الإخوة الفلسطينيين

٣ - مجتره - أكلة فلسطينية - مثل الكشري .

## على سفر

صفرة السماء الذهبية تنعكس على الوسادة ، ورأسه مصلوب عليها .. أنظر إلى جثته ممددة أمامي .. غير مصدق أنه مات ... ولولا صراخ أمي وولولتها لظننت أنه يغفو غفوة طويلة سيصحو منها بعد حين .

إخوتي يتحركون حول الفراش .. ينظرون إلى وجهه الأصفر .. هل حقا هو يودعهم إلى الأبد ؟؟

وحدي كنت لا أعبأ بهذا الجسد المسجى .. أنظر إليه يملأني الحقد .. وتتناثر نظراتي عليه مع زفرات حسرة كثيرا ما كتمتها .. وصراخ في داخلي يكاد أن يشق الصدر وينطلق لولا صوت أمي يكتم دونه كل صوت .. تولول :  
- اتصل بعمك .. اتصل بالجيران .. بالإسعاف .. افعل شيئا .

يتطاير إخوتي .. أحدهم يقطع المسافة ما بين السرير وباب غرفة النوم كالجلم .. آخر يسلك بسماعة الهاتف ويزج إصبعه داخل الدوائر يحركها بأرقام لا تلتقطها عيني .. أحسن أنه يخطئ الرقم .. كيف عرفت ؟؟ عيناى تتابعان إصبعه .. ها هو يضغط على دواصة الهاتف ويعيد طلب الرقم ثانية .. أمي لا تزال تولول ..

وحدى أقف لا أفعل شيئاً ... أسلط عيني على وجهه ثم أسافر بهما في أرجاء الغرفة الفاخرة .. هذا السرير العاجي .. وتلك اللوحة النادرة التي تنصدر الحائط فوقه .. وهذان شمعدانان بالتأكيد لم يضيئا مرة .. هما للزينة فقط .. وبقرب السرير ترتاح الشاعرة المذهبة ملابسها تتلى منها .. دسداشة حريرية تتساقط أكمامها جانباً بفعل الثقل الذي تحمله تلك الأزرار الذهبية .. غترته البيضاء معلقة فوق العقال .. تحرك أطرافها نسيات الهواء الباردة الآتية من فتحة التكييف .. أحسها تولول هي الأخرى تبكي صاحبها .. وعلى السجادة ذات الشعر «الموهير» يرتاح نعلاه جلد الخساح :. واحد فوق الآخر .

- على سفر - هكذا يقولون . ولذلك كانت أمي تحرص على ألا يركب نعلابي واحد فوق الآخر لأنها تكره سفره عنها . لكن أسفاره لا تتوقف . حاولت أن تبقى في البيت شهراً واحداً دون أن يغادر مرة واخترعت حجتها لذلك قالت له :

- أشتى أن تحتفل معنا بعيد رأس السنة الجديدة .

لكنه نظر إلى وجهها يفوح من نفسه اشمزاز :

- ماذا أفعل بينكم ؟ هل تحتاجون لشيء ؟؟

قالت أمي :

- لوجودك .

وطبطب على كتفها :

- البركة في الأولاد .

وقبل أن يغادر التفت إليها كمن يطمئنها :

- سأترك لك مبلغ عشرة آلاف دينار .. قد تطول سفرتي .

عيناى على نعل أبى .. واحد فوق الآخر . أبى على سفر . هذه المرة يسافر إلى الأبد .

اقتربت .. أردت أن أزيح النعل عن رفيقه لكنى تراجعت .. خشيت أن يصحو ويقرر أن يبقى ثانية وأنا لا أريده أن يعود .. تركت النعلين وعدت بنظري إلى جسده المستريح بوقار على السرير المجهز بآخر صيحات الديكور .. أزرة تملأ رأس السرير .. هذا الزرار تلى أمى ندائه .. وهذا بلبي ندائه السكرتير «مُثم» . يأتى حاملاً البريد وأوراقاً أخرى تحتاج لتوقيع .. وشيكات كثيرة يحمل كل واحد منها رقماً خيالياً . وهذا الزرار «لسلوم» الصبى يأتى حاملاً القهوة المرة .. يُصبُّ وأبى لا يشبع ويتنظر حتى يهز الفنجان مُكتفياً . وقد راقبت أكثر من مرة وجه سلوم مُتملماً بانتظار أن يتكرم أبى ويهز الفنجان .. واصطدته أكثر من مرة وهو يركع باقى القهوة فى الممر الذى يفصل غرفة النوم عن الصالة الكبيرة . سلوم يتكلم الآن قرب السرير مثل حيوان بانتظار أوامر سيده يستند بذراعيه على ركبتيه ويسقط رأسه بين الدراعين .. دمعة تترك آثارها على وجنته السمراء الداكنة .. وأشفق عليه .

لماذا يبكى ؟؟ هل يفكر بمستقبله بعد أن رحل وَلِىَّ نعمته ؟؟ أم تراه حقاً يبكى أبى الذى لن يرى وجهه بعد اليوم .. ولن يصب له قهوته .. سلوم يحب أبى فعلاً رغم الضرب المبرح الذى يناله لأنفه سبب . هو جالس الآن كالكلب الأمين يبكى صاحبه .

جرس الهاتف يزق .. يرفع أخى السماعه وكأنه يعرف صوت مَنْ سيأتى . صوته يخترق سمعى .

- نعم ياخالى .. أعطاك عمره .. تعال بسرعة ..

قبل أن يغلق تمتد يد أمي تسحب سماعة الهاتف .  
 - ياخوى مات .. بوحمد مات .. أبو عيالى مات . نشجت بعواء جديد  
 تساءلت لماذا يصدر عنها ! هى التى رغم عطايا أبى لم تكن يوماً سعيدة  
 معه .

\* \* \*

كان شجارهما يصل إلينا دائماً .. لهاث أمي .. صوت بكائها يخترق حائط  
 الغرفة ليفجر فينا بناييع الحقد على أبى . قبل سنوات كان لا يتوانى عن ضربها  
 أمامنا بالعقال .. أو بالثعل .. كانت تكتتب وتدارى وجهها المبتل خجلاً منا ..  
 وبعد يوم أو اثنين نراها باسمه فى وجه أبى .. وتراه يقدم لها مصوغة جديدة من  
 الماس أو الذهب .. وترضى .. وفى نفس اللحظة تخرج مناسبة :  
 - غداً سأدعو بعض الصديقات على فنجان شاي . يتسم أبى بمكر يفهم أن  
 المناسبة هى أن ترى الصديقات الهدية الجديدة وستعرف أمي كيف تخرج  
 سبباً وجيهاً تؤكد من خلاله حب أبى لها وسخاءه عليها . لكنها بينها وبين  
 نفسها تفهم أن هذه الهدية لم تكن إلا ثمناً للصفعة التى حصلت عليها ..  
 ١ وبكت ليلة أو ليلتين ذلاً وحزناً .

الآن هى تولول ... أف .. لماذا تحزن ؟ لماذا لا تزغرد ؟ لماذا لا تواجه أبى  
 بفرحها وتتقم من كل الأيام والسنوات السالفة ؟؟  
 وسلّم أيضاً بيكى .. لماذا يتكور هكذا قرب السرير ؟ دنوت منه :  
 - قم .. حضّر القهوة . خالى سيأتى الآن .  
 وتحرك بسرعة أذهلتنى .. كأنه كان يتمنى أن أطلب منه ذلك ليرتاح من فعل



بجاملة .. أو ربما ليستحي جانبًا آخر ويكي على راحته ... لا أدرى .. هل  
يحزن حقًا هذا السلوم ؟؟  
وحدى أنظر إلى الجسد بحقد .. بكرهية .. تنفجر من عيني أسئلة .. ماذا لو  
يعود الآن ؟ هل أصرخ في وجهه :  
- لا أريد كل هذا .. لا أريد .  
ثم أعلو بصوتي أكثر :

- مرة يا أبي قلْ لا .. مرة اصفعني كما تصفع أمي وقل لي لماذا علامتك هابطة  
رغم وجود مدرسين خصوصيين .. مرة ابصق في وجهي حين أجيء إليك  
وقد هُشمتُ السيارة الجديدة ! أو أتلفتُ الساعة الذهبية . لكنك أبدًا لم  
تفعل تنظر إلى بلا مبالاة ثم في اليوم التالي تأتي :  
- ياحمد .. خذ هذه ساعة بدل التي أتلفتها .. ثمنها ألف دينار .. هل  
تعجبك ؟؟

أهز رأسي . لا أبدى إعجابي . أتمنى لو أمسك بالساعة وتوانيتي الشجاعة  
فأخبطها في رأسك أتمنى لو أنها غداً صباحاً تُسرق من يدي .. وأحاول ذلك  
بنفسي .. أترعها .. أضعها فوق طاولة النادى حيث أضيّع يومي . لكن  
الكلب قرّاش النادى يتبعني بها :

- عمى حمد .. ساعتك .. نسيته .. الله ستر . وأحمل الساعة .. أحسها ثقيلة  
كالزمن الذى حولى وتبقى معي حتى أساهم في ضياعها وأنا متأكد أن غيرها  
سيسجن يدي .

الساعة التي على الكوميدينو ترقص عقاربها . الوقت يمضي وأنا أرقب  
وجهه الأصفر وأتمنى ألا يعود فرمًا استطعت منذ الغد أن أسترده بعض ما فقدت .

أستطيع أن أفعل شيئاً أحبه .. أركب « باصاً » أو « وانيٲاً »<sup>(١)</sup> أو دراجة بخارية .. وأخاصم السيارات الفارهة إلى الأبد . أريد أن تبدأ حياتي من جديد ولن يأتي صوتة ثانية يوغني :

- لماذا تعاشر أبناء الفقراء ؟ وتدرس معهم ؟؟ ولن أسمع كلماته تذبح طموحاتي حين لا أحصل على نتيجة جيدة :

- لا يهم يا حمد . الدراسة لن تفيدك بشيء . أنت والحمد لله في نعمة بحسبك عليها كثيرون . فتحت لك محلاً تجارياً .. وعارات كثيرة سجلتها باسمك تدر عليك الربح .. ورصيد لك في البنك .. يكفيك أن تصرف في اليوم الواحد ثلاثة آلاف دينار لسنوات طويلة .

- ولكن يا أبي - في محاولة للاعتراض - أريد أن أحصل على شهادة . ويسكني :

- التجارة شهادة .. والمال شهادة . أنظر إلى .. هل معي شهادة .. ومع ذلك حققت لكم ولنفسى كل شيء . ثم يتسم باستهزاء كم كرهته :

- خلّ الشهادة لأولاد الفقراء .

خذ ...

ويقدم لي مفاتيح سيارته :

- اركب الرولز رويس .. تمشي فيها على الكورنيش ألف فتاة ستطاردك .

\* \* \*

أمي تبكي .. أف .... هلي يستحق حقاً دمة منها ؟؟ عشرات النساء الآن متى عرفن ستحزن قلوبهن لأن أبي لن يرشهن بعد اليوم بالمال .. أما أمي فكل شيء باق لها .

الأمس كفتها بحنان :

- أمى .. يكفى .

وتسارع مدايحها :

- كان الخير .. والبركة .. كان .. كان .. وكان ....

آه .. لا تكذبى يا أمى .. كان لا ينظر إلى وجهك المستور إلا نادراً .. وكان  
يكيل لك التائب ، يصرخُ فى وجهك .. يضربك .. هل نسيت ٩٩ وكنت  
ترين أحمر الشفاه على ملبسه .. وتشمين روائح النساء الأخريات فى طيات  
جسده وحين سألته :

- ما هذا ٩٩

قال حتى دون أن يتكرم بالالتفات إلى وجهك المتسائل :

- «مو<sup>(٧)</sup> شغلك» .

ولم تسكتى .. بمذلة نوارثناها منك سألته :

- هل تعرف واحدة غيرى ٩٩

وضحك هازلاً :

- واحدة .. عشراً .. أنا رجل .. وحر ..

لم تكونى يوماً ماهرة يا أمى . كنت سجينه لهفئك على المجوهرات ..  
والملابس الفاخرة التى تغيظين بها أمثالك من النساء الدليلات .. بينا أشباح  
النساء الأخريات تلاحقك حتى فى منامك . وفى رائحة أنفاس أبى . هو  
رجل .. وعنده مال قارون . المال الآن كله لك يا أمى .

هزتها :

- يكفى يا أمى .. أبى مات وانتهى الأمر .

وحدى أفرح .. أحس أبواب الحياة المغلقة تشرع نفسها لى .. وتدعونى أن  
أرتمى فى أحضان الحرية . سأترك كل شىء منذ اليوم .. سأدوس على هذا الذى  
يتصوره أبى نعمة .. سأتمنى بعد أن كسر سلم الأمانى تحت قدمى . سأحلم .. بعد  
أن مسح كل أحلامى .. سأذوب فى بحر الحياة بعد أن أذابنى فى حياة الترف  
فسبحت فيه مرغماً بيننا أصدقاء الفقراء الذين يحتقرهم صاروا أطباء ومحامين ..  
وصيادلة .. وكل له حرفة يمتنها بعد أن عرق جبينه .. بعد أن حَلَمَ طويلاً ..  
بعد أن ركضوا وتعبوا ... هم الآن يرتاحون على بساط جهدهم وقد  
وصلوا ....

أصل إلى وجه أبى المسجى . أدقّق فى ملامحه التى كستها صفرة الموت ..  
عيناه مسبلتان بهدوء .. فجأة : أرتعش .. أستيقظ .. فتستيقظ فى عيني دمة  
كبيرة .. تكاد تخرق جدارها لكنى أحبسها .. ويستفيض فى قلبى إحساس  
غريب .. إذن ... أبى حقاً يموت .. يرحل إلى الأبد .. هل كنت أنتظر نهاية  
رحلته مع الحياة لتبدأ رحلتى إليها ؟؟ أنزلق بعينى حيث يرتاح نعلاه .. لا يزالان  
واحداً فوق الآخر - على سفر - أقترّب بهدوء .. أغنى أساوى النعلين .. فى تلك  
اللحظة .. تسقط الدمة الكبيرة ..

\* \* \*

---

(١) واثبًا : سيارة شحن صغيرة .

(٢) مو : ليس .

## الكبسة

ارتدت عباؤها وأمرت كنتها :

- قومي يا عائشة ..

في انكسار واضح .. نهضت عائشة - مسحت يديها بفوطه مبللة ملقاة قرب  
« الذوة »<sup>(١)</sup> وتبعث أم زوجها .

\* \* \*

في الطريق همست أم زوجها :

- عسى أن يكون على يدها الشفاء .

تعثرت الكلمات على شفتي عائشة :

- تظنين أنه بعد هذه السنوات التسع :

شدت على كلماتها :

- لا تفكري بالأمر .. « أم الشيبة » معروفة لم تقصدها واحدة وخاب أملها

- آه .. أنت لا تيأسين يا « خالتي »<sup>(٢)</sup>

كانتا في تلك اللحظة قد مرّتا قرب بيت « الناعوم » أطلت عجوزهم بشعرها الأحمر :

- صباحكم الخير..

تشاءمت المرأتان من وجهها . ردتا بالتناوب :

- صباح الخير..

- هلا .. ومرحبا ...

. ويفضولها المهود سألت :

- ها ! وين على الله في هذا الصباح ؟؟

ردت الخالة :

- عندنا « شغل » في السوق .

. مدت ذراعها الداوى :

- انتظراني .. أحضر عباقي .. وأجىء معكما . حين دخلت لتحضر عباقتها

كانت عائشة وخالتها قد فرتا إلى زقاق جانبي .. وتوارتا عن الأنظار

\* \* \*

قالت بصوتها الراجف ، وخطوهما لا يزال يفيض بكاراة صمت النهار :

- والله العظيم يا خالتي رأيته .. بعمرى ما رأيته هراً بهذا الحجم .. وقف عند

عتبة الباب .. هزّ يده اليمنى وسمعته ينطق بالكلمات :

« لن تنجى أبداً »

قرصت خالتها ذراعها الدافى .

- بس : قلت لك ألف مرة .. لا ترددى هذا الكلام .. هذا جنون .. وسوسة

شيطان .. أو قد يكون « الجاثوم »<sup>(٣)</sup> .

انكسرت عيننا عائشة إلى الأرض . وواصلتا السير .

\* \* \*

فتحت أم الشيبة الباب .. فهمت :

- أهلاً بالحبايب .. كان ودى بهذه الزيارة من زمان ..
- هَمَزَتِ الخالة على ركبتيها وابتسمت متفوية :
- كلك خير وبركة .. ويدك فيها العافية إن شاء الله . ونظرت إلى عائشة وغمزت ، فطلعت « أم الشيبة » إلى وجهها المنكسر وسألت مازحة :
- خاتفة يتزوج خالد من امرأة أخرى ؟؟
- تدخلت أم الزوج حين نحت حزناً يطوف بوجه كتنها :
- والله خالد لا ينوى الزواج .. لكنه يريد ذرية .
- أكلت « أم الشيبة » وهي تهز رأسها :
- معه حق .. معه حق ..
- ثم تربعت .. واستعلت :
- شوفي يا أم خالد .. تسع سنوات .. ولا فائدة .. هذه المرة لن تفيد مع عائشة إلا زيارة امرأة نفساء ..
- اعترضت أم خالد :
- بس يا أم الشيبة .
- فهمت المرأة قصدها :
- لا يهم .. أنت يهكم أن تحبل كنتك .. وأن تشمى رائحة ولدك الغالى فى ذريته .. وما عليك من غيرك ..
- لكن : حرام .. ما ذنب بنات الناس ؟؟

ثارت أم الشبية :

- أى ناس ! الله يهديك يا أم خالد .. سنذهب عند واحدة لا تعرفونها .
- تبادلت أم خالد وكنتها النظرات .. وارتمت رموش عائشة بعدها لتخلف معها دمة .

\* \* \*

في طريق العودة .. سألت خالتها .

- وكيف ستعرف الوالدات من غير اللواقى نعرفهن ؟
- أجابت خالتها بلهفة توحى بأنها تستعجل الأمر :
- نسأل الناس .. ومن يدلنا نعطيهِ البشارة .

\* \* \*

في الظهيرة . دخلت الدلالة البدوية « أم دهاش » كعادتها تحمل بقشنتها .. وتفوح منها رائحة « المحلب » .. عرضت بضاعتها .. اقتربت أم خالد تتفحص :

- ماذا عندك اليوم يا أم دهاش ؟
- تراجفت شفة البدوية الرخوة . وأخذت تعدّد :
- بنجور .. حلتيت .. ديرم .. علك بصرى<sup>(١)</sup> .. و.... قاطعتها أم خالد :
- كل هذا لا نحتاجه اليوم ...
- شهقت أم دهاش :
- تردّينى خائبة يا أم خالد ؟
- ضحكت أم خالد .. واقتربت منها أكثر .. وصوتها يخفت قليلاً :
- لا يا أم دهاش .. لكن طلبنا اليوم صعب .



- خبطت البدوية على صدرها بثقة :
- ما يصعب شيء على أم دهاش .
- بارك الله فيك .. لهذا قصدتك ..
- فرحت البدوية بثقة أم خالد .. وأكدت :
- تدلّلي يا أم خالد .. والله لو طلبت عيون دهّاش ترخص لك ..
- عسى عيونه سالمة .. وَعَسَاكَ بخير يا أم دهاش ..
- استعجلت البدوية الطلب :
- ها .. طلبك ؟؟ مرادك ؟؟
- استوت أم خالد في جلستها .. فاح طعم الرجاء من كلماتها :
- نريد يا أم دهاش أن تقوم عائشة بزيارة لا مرأة نساء حتى يحقق الله لها مرادها .
- خبطت البدوية على صدرها :
- يا قلبي يا عائشة ... طال صبرها ... و....
- تلعثمت .. تهذبت شفقتها وسال منها بعض اللعاب .. أكملت :
- لكن يا أم خالد .. هذا الأمر قد يؤذى النساء .. أو الطفل ...
- وتعرفين .....
- قاطعتها أم خالد مهتئة :
- يا أم دهاش .. نريدها أن تدخل على واحدة لا نعرفها .. نحن لا نريد أن تؤذى من نعرفه ..
- استراحت تقاطيع أم دهاش :
- فهمت قصدك .. أذية المعارف حرام .

أنت أم خالد على ذكاء البدوية :  
- كلك بركة يا أم دهاش .. وأنت يا « عوينتى » تدخلين كل البيوت .. وتعرفين  
أسرارها .. ومتى عرفت عن ولادة .. أخبرينا ...  
غادرت البدوية .. طرقت الباب وراءها ...  
وكان أمل جديد يطرق قلب عائشة .

\* \* \*

هو الليل يأتى .. غلالة سوداء تنسدل تدريجياً على الأحياء الطيبة ، تنعس  
العيون .. تهجع الدجاجات فى أقفاصها .. وتخمد رائحة المواقد ، تبرد فيها  
أباريق الشاى ..

وعيناها .. لؤلؤتان ليلتان تنتظران زائر الليل :  
- سيأتى الهر الليلة . سيقف عند الباب .. سيهزّ يده .....  
لا .. لن ينطقها الليلة .. سأضربه .. سيصمت للأبد .. و.... أدخلت  
تلاعب خصلة من شعرها .. وتعليات أم الشبية تتوالى فى رأسها :  
- شوفى يا عائشة .. سابع يوم بعد العادة الشهرية ... تغتسلين .. و.....  
و.. و.....

\* \* \*

حفظت الدرس ...  
سأغسل شعرى .. سأتركه مبللاً .. يجب أن أذهب إلى النعشاء وهو  
كذلك ... و...

- شوفي يا عائشة .. يجب أن يتقاطر ماء شعرك على فراش الوالدة .. و ..  
اسجبي نفساً عميقاً .....

- آه ... آه ...

لم يسمع سوى الليل نهبتها المسحوبة من صدر حزين ... ورددت في  
سرهما :

سيقطر الماء .... وإن شاء الله سوف أحمل . ابتسمت لنفسها .. وتمحّست  
بطنها المشدود الذي لم يحتضن بعد طفلاً .

\* \* \*

خالتي قالت لأم دهاش :

- ستكون عطايانا لك ثمينة لو حملت عائشة .:

وشفة البدوية انفرجت عن أسنان متفرقة صفراء .. والفرحة نطقت  
بلسانها :

- أريد سلامتك يا أم خالد .. يا أم العطايا .. والكرم .  
وردت خالتي :

- تستاهلين .. يا أم دهاش ..  
وأنا ...

ألا أستاهل أن يكون لى طفل 11 ولخالد أيضاً .. وخالتي الملهوفة على  
حفيد .. ألا تستاهل أن تفرح : والأهل .. والأقارب .. و ... لكن : الآن  
يؤذى هذا النساء أو المولود ؟ ! ...

لا .. قالت خالتي سنذهب لوحدة لا نعرفها .....  
آه .. متى تأتى أم دهاش .. ويتقرر الذهاب ؟

تحسّست فاطمة رأس الطفل .. دافئًا لا يزال ... ارتعش قلبها .. سمّت  
بالله ثلاثًا .. غطت سريره بطرحة من الشاش الأبيض . واستلقت على  
ظهرها .. وفي نفسها أمنية كبيرة : أن يحفظ الله طفلها .

من الغرفة تفوح رائحة « النفاس » حلبة .. رشاد .. و« حُسو »<sup>(٥)</sup> .. وجسد  
لن يستحم قبل الأربعين .. رائحة حموضة تفوح من ثوب فاطمة التي درّ حليب  
صدرها قبله .. أمها تروح وتجيء في الغرفة ترتب المطارح والمساند .. وتقرش  
السجادة بخفة .. قبل أن يأتي الزوار .. والمهثين .

حين أكملت عملها التفتت إلى ابنتها :

— هل أرضعت الطفل ؟

جاء صوت فاطمة مشحونًا بالأسى :

— حاولت للمرة الثالثة .. ولم يقبل ..

— ألا تزال حرارته مرتفعة ؟

— نعم .. وقد أفرغ كل الحليب الذي رضعه هذا الفجر ..

اقتربت أمها .. جسّت جبهة الصغير ، نظرت لا بنتها في محاولة لتطمئنها :

— لا تقلقي .. ليس له إلاّ العافية .. ثم اتجهت نحو باب الغرفة .. يتباعد صوتها

معها :

— سأعدّ لك « عصيدتك »<sup>(٦)</sup> تأكلينها قبل أن يأتي أحد

قبل أن تكمل جملتها كانت يد تطرق باب البيت .

\* \* \*

دخلت أم دهاش .. تتبها عائشة بخطى مرتجفة . رحبت أم فاطمة بالدلالة

بحرارة تعودتها .. ومدت أطراف أصابعها إلى عائشة بينما ينطلق سؤال من عينيها  
لأم دهاش « من هذه ؟ »

وضّحت أم دهاش حين فهمت سر النظرة : ... قابلتها في السوق . تبحث  
عني .. لها عندى حاجات .. طلبت منها أن ترافقني لأطمئن عليكم ما دمت  
قرية من البيت ..  
واستدارت لعائشة لتؤكد :

- حبيبة ... .... و بنت ناس ...

رجبت أم فاطمة بينت الناس :

- يا هلا .. ومرحبا .. تفضلا ..

لكن شكّا لاح من عينيها .. واشتعل وسواس حارق في فؤادها .. فتحوّزت  
من الشيطان ثلاثًا . كانت أم دهاش تسبقها إلى غرفة فاطمة . وعائشة تتبعها  
بثاقل .. ووجل ..

- بسم الله الرحمن الرحيم ...

بسملت أم دهاش وهي تضع قدمها اليمنى عند عتبة الباب .. وهكذا فعلت  
عائشة ..

اختزقت الرائحة صدرها .. وتمنت :

- متى تفوح عندنا مثل هذه الرائحة ؟؟

\* \* \*

مالت الدلالة على رأس فاطمة .. قبلته .. وابتعدت لتقرب عائشة .. تفعل  
ما فعلته رغم عدم معرفتها بالمرأة ..

« يجب أن يتقاطر ماء شعرك على الوالدة حتى ..... » وانسدلت جديلتان  
رفيعتان .. امتدتا كنهرين يضيقان عند مصبها و.. تقاطر الماء .....  
تنفست أم دهاش بارتياح .....  
- تفضلا ..

دعنها أم فاطمة للجلوس لكن أم دهاش اعتذرت :  
- أنا مستعجلة .. وعائشة لها عندى بعض حاجات و.....  
نقلت بصرها بين وجه أم فاطمة التى تقف وسط الغرفة ووجه عائشة خشية أن  
يكون انفعال ما قد رَفَّ على وجه العاقر .  
حين اطمأنت .. التفتت إلى فاطمة فى مرقدها :  
- لا إله إلا الله .. أنت اليوم أحسن من الأمس . سحبت عائشة مودعة ..  
ورافقتها أم فاطمة إلى الباب .. وما أن عادت حتى أشعلت البخور ، وأخذت  
تدور فى الحجرة .. تُبَسِّل .. وتتعوذ من الشيطان .

\* \* \*

مات الطفل ...  
بعد ثلاثة أيام من زيارة عائشة وأم دهاش .. ظلت حرارته مرتفعة .. ورفض  
صدر أمه .. حتى ودَّع فى ذلك الصباح ..  
أم فاطمة حلفت أمام النساء المواسيات بأن الطفل كان بصحة جيدة .. حتى  
دخول أم دهاش ورفيقتها . وبكت فاطمة بحرارة :  
- حسدته المرأة ..

- وانبرى صوت إحدى الحاضرات :
- هل تعرفون تلك المرأة ؟؟
- ردت أم فاطمة بأسف :
- لا والله .. ليتنى أنخلت من أثرها ...
- وألحت المرأة :
- إوصفها لى يا أم فاطمة .. فقد أعرفها ..
- ووصفت أم فاطمة المرأة .. طولها .. لون بشرتها .. و.. كأنها تذكرت :
- وعلى جبينها شامة كبيرة ناتئة .
- وشهقت المرأة :
- حسبنا الله ونعم الوكيل .. هذه عائشة كنة أم خالد .. وهى عاقر ..
- ثم التفت لفاطمة مستفسرة :
- هل المنحت عليك ؟؟ هل تقاطر ماء شعرها على صدرك ؟ هل سحبت نفساً عميقاً ؟؟
- هزت فاطمة رأسها بالإيجاب فأنحدرت الدمعة الواقعة على وجنتها ..
- وتنهت المرأة :
- يا ويلها من الله .. لقد كبستك .
- وصرخت أم فاطمة :
- يا ويلها .. ويا ويلك .. منى يا بدوية النحس .

\* \* \*

لم تعد أم فاطمة تفكر بالطفل الذى مات .. انصب كل همها .. وتفكيرها

بالطريقة التي تفك بها الكيسة عن فاطمة .. التي قد لا ترى وجه طفل بعد اليوم .  
قالت تخاطب نفسها :

- غداً .. أذهب عند «أم الشية» عندها يكون الحل .. والدواء .

\* \* \*

- 
- (١) الدوة : منقل الفحم .  
(٢) خالتي : أم الزوج في منطقة الخليج تدعى خالة .  
(٣) الجاثوم : الكابوس .  
(٤) حلتيت ، دريم ، علك : أشياء تستخدم قديماً .  
(٥) حسو : دواء خاص للنساء .  
(٦) عصيدة : طعام يصنع خصيصاً للمرأة النفساء وكذلك «القبوط» وتكثر فيها الحلبة .  
الكيسة : هي المجمة فجأة .. و «المكايس» الذين يكتنون كبس بيوت الناس . و «المكيس» من يقتحم  
الناس «فيكبهم» .  
عن كتاب : مع ذكرياتنا الكويتية : المؤلف : أيوب حسين .



## الشمس وضحاها ..

سبق ذهني جسدي إلى هناك .. شوق عارم أحاطني وضيق على . كنت قد اعتقدت بأن العاطفة التي بيننا قد اهترأت .. وأن ذلك المجر الطويل الذي فرضه علىّ قد وأد كل عاطفة ممكنة .. لكنني في اللحظة التي فكرت فيها أن أفرّ - أن أهرب حاملة كل الشجن . أن أحرث كل التراكبات المزروعة حول أيامي ، المحيطة بجياني كأشجار غابات .. جافة تحدشني أفرعها .. وتزويني سيقانها تحت أكوام الأوراق المتساقطة . اليوم ... سأفرغ الشحنة .. سأجعل عواطفى المحبوة تحت جلدي تنطلق .. سأتمرد على الركود والبلادة .. سأسمح للوجع الذي استفحل دون رحمة .. سأهب كشرارة تعرف أين تسقط أين تضيء .. هناك .. ذهني يسبق جسدي .. أتبعه آكل المسافات .. قدماي طائرتان .. ولي أجنحة قوية ودون أن أدري كيف وصلت .. وجددتني أمام الباب المهجور .

أولجت المفتاح بثقب الباب .. لم أجد صعوبة في ذلك رغم أن الأشياء إن هُجرت تصدأ .. كأن الثقب ولهان .. محتاجاً لعناق .. منتظراً للحظة كهذه ، حين لويت المفتاح أصدر أنيناً كأنه يستغيث .. كأنه يتألم .. كأنه يهمس : إنني

عائب عليك ... لقد هجرتنى طويلاً .

حين دلفت بوجهى كان الظلام يحيط بالمكان .. فى الخارج شمس تسبح  
الله .. وتضىء .. وهنا .. الظلام محقق بإصرار .. يدى تتحسس مكان النور ..  
تلقاه كأنه ينتظر .. فجأة ! شع الضياء .. فاحت رائحة الأشياء عطور عشق  
قديم ، ودكريات مبعثرة .. وتواريخ مدونة على كل وجه .. روائح ألم قديم  
عشته .. تحسسته داخل صدرى .. وتحت جلدى .. ألم أحبيته ، وأحبه ..  
جئت لأجل أن أجدد ولائى له .. استنجدُ به أن يعود .. وبلا صقنى ليحرك  
البركة الآسنة ، لأعرف طعم اللحظة التى تنخر فى لحمى .. وتنتطلق بعد ذلك  
إيجاعات وحركات .. وتعابير .

ارتبمت على الأريكة التى لا تزال تحمل رائحتى منذ آخر مرة ، احتوتنى ..  
حضن أمى أريكتى .. تنش مفاصلى .. أسترخى عليها .. أبللها بعرقى .. وأريح  
رأسى .. أترك الحرية لعينى تدوران .. تمارسان هواية السفر هنا .. وهناك ..  
تطلعت إلى الحوائط تبسم .. كلها تبسم .. فجأة نبئت لها عيون ، وثغور ..  
وأسنان .. وآذان مترقبة .. وأذرع تمتد .. تعانقنى .. ذراع يرمينى بعد إفراز شوقه  
للنراع .. وصدر يروينى ثم يهدينى لصدر .. الحوائط لا مكان فارغا فيها .. كل  
أحلامى .. ودكرياتى .. حكاياتى الطفلة التافهة .. الجادة .. كلها عليها ..  
وأوجه كثيرة .. يتلاعب فوقها الضوء . بعضها يحمل فرحه .. وبعضها مكتئب  
لا يزال تحت وطأة الحزن .. وجه أمى الذى لم يعيش طويلاً .. وجه جلدى التى  
كانت حانية .. ووجه ربما الطفلة التى كانت ترتاح على ركبتي فى طريق العودة  
من المدرسة .. كانت السيارة تضيق بنا .. وبينات الجيران اللآئى كنا نصطحبن  
معنا لنوصلهن إلى بيوتهن .

وجه ربما وحده ظل في ذاكرتي .. كنت أياها بعد صغيرة لكن حلمي  
 ظل يتلاعب بالمرج المفتوح .. حين أكبر وأتزوج .. سأنجب طفلة مثل ربما ..  
 نسيها .. وسأسميها باسمها . وربما اختفت فجأة ! غادرت وأهلها إلى بلدة  
 أخرى .. وظل وجهها موشومًا في ذهني .. هو ذا .. أمامي الآن .. بالوعة  
 الذكرى ... وجهها أيضًا يتسم .. يحضن وجهي كأنه يرحب به وكل شيء على  
 الحوائط مما فاضت به روحي من معان . وبكل ما جادت به ريشتي من  
 لمسات .. كله يتسم يدعوني أن أتحرك .. أن أمنح خيالي أجازة .. وأسوح في بحر  
 واسع ألتقط منه .. وأرسم ... أسجل كل الأحداث التي مرت طيلة السنوات  
 التي هجرت فيها مرسمي .. أضيف لتاريخي القديم نوارين وأشكالاً .. هو ذا بيتنا .  
 القديم - قلعة زندا - ذلك هو الشاب الوحيد الصغير المطل إلى الشارع .. كان  
 ذات يوم نافذة اللجنة التي رأيت فيها وجه كرم .. في تلك القلعة الصلبة ..  
 عرف قلبي الحب .. وسجل كل لحظاته هنا .

تولد الذكريات .. أرتعش .. في مقعدى ظللت مسترخية . شبه صداد بدأ  
 يحبو من أسفل الرأس .. يتسرب شيئًا فشيئًا .. الوحدة المحيطة بي لها صوت ..  
 اسمعه أنتشي قليلًا .. هذه الوحدة ملاذى .. إنها ترحب بي .. فلم لا أستغلها ..  
 أن أفعل شيئًا .. قفزت .. سحبت فرشائي .. ووعاء الألوان .. استعرضت  
 اللوحات المعلقة على الجدران .. أين أجد مكانًا لأمارس عليه رغبتي ؟؟ ..  
 عيناي اصطدمتا بوجه العجوز .. وجه رأته يومًا ما عند باب الجامع ، كنتُ  
 أحمل « روبيتي » اليتيمة هارعة إلى دكان السيد لشراء بعض الحاجات  
 الخفيفة .. لمحتها عند حائط المسجد متكومة . عيناها البارزتا الجفون وماؤها  
 الأزرق الذي أعلن وفاة الشباب فيها أخافتاني ، يدها تشد على فمها بطرف

عباءتها الممزقة .. حين قدمت لها الرويبة وسحبت يدها بان فيها الأردد إلا من  
 نابين صفراوين . ولسان أحمر عريض .. نظرت إلى الرويبة .. تحسستها ثم ألفت  
 بها وصرخت في وجهي :  
 - تسخرين مني .. تعطيني حديدة .

هلع قلبي .. ابتعدت بعد أن انتشلت الرويبة التي انغرس نصفها في التراب .  
 هرولت مبتعدة ووجهها قد حط في رأسي .. دك نفسه بعنف واستقر رغم كل  
 محاولاتي أن ألفظه .. كنت أخشى أن يزورني في الليل ويفسد على راحتي ..  
 لكنه ظل حيا .. ولم أخلص منه إلا حين قذفته ريشتي إلى اللوحة .. وجه  
 أكرهه .. لذلك أمسكت باللوحة التي تحمله .. أنزلتها إلى الأرض ، علفت  
 لوحة خشبية .. جهزت الألوان .. أى لون ؟؟؟ في الخارج . ينتشر الضحى ..  
 وشمس الضحى جميلة . لا هي نار موقدة .. ولا لوح تلج .. لا هي قاسية ..  
 ولا حانية كل الحنو .. لا هي غاضبة .. ولا مبتسمة .. شمس لا تعرف الكدر  
 ولا اليأس عروس تجمع حولها الوالهات إليها .. إلى - شاي الضحى - جلسات  
 المودة ، والهرب من متاعب كثيرة .. حلقات .. وأحاديث يصير فيها الضحى  
 كأمنية سمر .. والضحكات تغور نجوم وابسامات قر .. ضوء شمس الضحى  
 يتسرب إلى روحي المظلمة .. إلى أزقتها الموحشة .. اللون الأبيض . هكذا  
 قررت ... ومسحت على وجه اللوحة . صار الفضاء أمامي ناصعاً بلون قلب  
 مولود لم تصفحه الأيام .. شيء من الأزرق الفاتح .. مسحة قليلة .. وشمس  
 الضحى تترع في قلب النهار .. أبتعد .. أتأمل اللوحة .. كأن الشمس فيها  
 ترقص .. اللوحة كلها تتحرك بين يدي وأنا أعود إليها أفرغ لمسات ولهي وعشقي

عليها . يتقل صفاؤها إلى . أحسه يطحن أطنان العذاب التي حملتها معي  
وأنت هاربة من لحظة جداله المر .

- أين ستذهبين؟؟

- صديقة عزمتني على «شاي الضحى» .

- تقصدين شاي النعيم والنقد اللاذع .

- سمّه كما تشاء .

- لكنك تكرهين إضاعة الوقت !

- لقد ضاع عمري .. ما يهمني لو ضاع الوقت؟؟

عيناه انغرزا في وجهي . تتساويان وعيني تمر يلهث وراء فريسة .. وأنا

الفريسة التي وافتها أنفاسها أخيراً .. وشجاعتها لتقرر أن تبدأ من جديد ..

تتحرك .. تخرج .. لكن صوته الكال شق أذني :

- إذا طلبت منك ألا تخرجي ...

- سأرفض طلبك .

- وإن رجوتك؟؟

- سأهمل الرجاء ..

- وإن أمرتك ...

- سأعصى الأمر...

- وإن استخدمت سلطتي عليك؟

- سألعن سلطتك .. وسأكسر قيودي .

- تحديني !

- بل أتحدى ضعفي .. لقد مللت .. لقد اكتفيت .

فاض على وجهه استغراب .. هو لا يصدق أن الفريسة التي فاضت روحها منذ سنوات طويلة تعود لها الروح .. أنا نفسى لم أكن أصدق . كيف وُلدَ هذا التحدى بداخلى ؟ كيف نما دون أن أشعر به .. وكيف تواتيه الشجاعة أن يتحرك معى .. بهذا العنف ، يستغزنى فأهاجمه وكأننى صرت الحيوان الكاسر ، وصار هو الأرنب المرتجف .

- لو خرجت تكونين طالقاً بالثلاث .

- آه كم تمنيت أن تطلق روحى .

- أو .. أقتلك

استدرت إليه بكل القرف الذى أحسه . خاطبته :

- هل تظن أنك بعد لم تفعل ؟؟ لقد قتلت الفرح بداخلى ! عريت أشجارى الخضراء .. حوّلت زمنى خريقاً دائماً الصفرة .. حرمت وجه النهار أن يصفح وجهى .. وشمس الضحى أن تدفى أطرافى .. سأخرج .. لن يردنى اليوم شيء .. لن أهتم لما سيثار ويقال .. لقد اكتفيت .

لم ألو على شيء .. كان بداخلى سعادة ولدت ليلة البارحة حين تهادى صوته المغترب منذ زمن .. استيقظ النوم فى كيانى .. كرم يعود فى الوقت المناسب .. كأنه يطرق باب القلعة التى صدأ كل شيء فيها .. بما فى ذلك قلبى .

كيف جاء ؟؟ ولماذا جاء ؟؟ كيف نبع صوته فجأة يتحدى كل الركود كأنه يلقي بالحجر الثقيل فى بحيرتى الراكدة فيتناثر ماؤها كأنه يقذف سهمًا إلى قلبى المتخشب آمراً إياه أن يصرخ .. أن يتمرد .. أن يرقص .. أن يطمح إلى لحظة يتكسر فيها جليده .

فكرت ليلة البارحة : هل أبدأ من جديد ؟؟ هل أكسر قيودى التى تورمت  
مها كل السنوات الماضية ؟ ! منذ تركت بيت أبى - قلعة زندا - متصورة أن  
لا قلاع غيرها.. واخترت أن أوافق أبى الذى قال مواسياً :

- هو كبير فى السن . لكن «الشايب» يدلل .  
ارتضيت أن أخرج من القلعة .. ما كان يهمنى إن كان عجوزاً يدلل .. أو  
شاباً يعلل قلبى .. كنت أريد أن أجرب نوعاً من الحرية .. بعد أن حرمتنى  
حصون القلعة من وجه كريم .. يوم عرف أبى أن النافذة الوحيدة قد صارت  
تأق منها نسائم الحب .. أتسلق السلم .. أطل منها أتماور مع كريم فى عز  
القيولة .. أهديه رسائل .. ويهينى رسائله .. ومنذ عرف والذى . قرر أن  
يكلل سجنى .. أن يتخلص منى .. أن يهينى بعقد زواج إلى رجل يكبرنى ..  
وله أبناء بعمرى .. وقد ودعت أهمهم الحياة فى كنفه .. وبقي هو رابضاً رغم  
أمراض العرين .

قلعة زندا أخرى زفت إليها نفسى راضية .. وقد حسبت أن القلاع كلها قد  
اندثرت ! هكذا كان على أن أبدأ .. أحمل موهبتى .. ألوانى .... ريشاتى ..  
وأعلن له بكل اللل :

- هل أستطيع ممارسة عشقى ؟؟  
وبشفتين لزوجتين قرر كأنه يمنحنى صك السعادة :  
- تستطيعين .. ولكن ! !  
عقدة حسبتها لن تفك .. لكنه تابع :  
- رائحة الألوان .. ترعجنى ..

أردت أن أثير شفقتة :  
- سأحس بالضيق .. وقد تعودت أن ....  
هز كفه المجدد :  
- طيب .. في مكان آخر سأجهز لك مرسماً .  
في تلك اللحظة فقط شعرت نحوه بالحب .. تهلل وجهي :  
- أين ؟؟  
- في العمارة ..... في منطقة .... سأخصص لك شقة لفوضالك .. وروائح  
ألوانك .. و...  
شكرته .. دفعت ثمن عطفه لحظة أحققها له .. لا أحس بها لكنه  
يحتاجها .. وجّه لي المكان .. كنت أخرج إليه كل يوم .. أمارس أوموتي  
المفتقدة على اللوحات . وأستجمع الذكريات .. والوجوه ... أحقق لها عودة  
إلى الحياة .. بعد أن ربيضت تحت تراب السنين .  
ليلة البارحة كانت قاسية .. أحسست شيئاً كالملح يتراكم داخل حلقى ..  
فقدت معه كل شهية لاستقبال الصباح .. وددت لو يمحط الليل رداءه .. أن يبقى  
رغم وحشته أن يتركني في سبات . طويل .. ربما في الإغفاء بعض الراحة .. في  
حضن الليل نستطيع أن نفكر .. أن نحلم .. أن نقرر دون أن تكون هناك يد  
تغتال أحلامنا .. أو تقنص قراراتنا .  
صوت كرم الذي تهادي إلى سمعي بعد هذا الموات يدعوني للحياة .. يوحى  
لي بأن شيئاً ما عذباً يتدفق إلى شراييني .. إن دقته تبادر إلى جوف القلب .. تهزه  
تبّله بالندى .. أرتعش .. أحسّ أنه لا يزال ذلك الطفل الرقيق الذي تهرع عرش  
صمته دغدغة .. إنه لا يزال برغم كل الثقل الموهن الراجح ، قادراً على أن  
يرقص .. أن يميل .. أن يرتاح إذ يلمح عيناً تسلط عليه نظرة حانية أو ثغراً



يشتهى أن يطبخ قبة ما على خده الأحمر ! قلبي يستفيق .. منذ تهادى صوت  
كريم .. وكنت لا أصلق :

- أنت ؟

- نعم .. أنا ..

- ما الذى جاء بك ؟؟

- أشعر أنك بانتظار لحظة كهذه .

تصارعت هتافات بداخلى .. هل أقول نعم ! هل أرفض ! هل أنطلق إليه  
بكل الحاجة التى أحسها ؟ أم أبقى ذلك الشئ الواهن المعلق ما بين الحياة  
والموت ؟؟ هل أجد ميلادى ؟ أم أفتح قبراً لسعادة تأتى وأنا فى أمس الحاجة  
إليها ! كيف جاء كريم .. ولماذا اتصل ؟ كان الزمن نهراً يفصلنا .. نهراً غرقت  
فيه مع رجل استكثرت على الوعد .. وحرمنى بعد ذلك من مرمى وسجن شهيقى  
للحياة داخل قلعتى .. فنسيت أشكال الوجوه المعلقة .. وتضاريس البيوت  
القديمة .. حتى بيتنا الطينى القديم الذى كان قبل أن يبنى أبى القلعة . فهل  
أغامر ؟؟ .... هل أقذف بمسدى إلى النهر ؟؟ هل ألحق بكريم الذى أحس به  
شرارة الحياة وقد توقدت لتضىء ؟

ليلة بائسة مررت بها .. تقاذفتى النداءات والصراعات . على أن أقرر .. أن  
أختار .. أن أكون شجاعة ولولمة واحدة : أن أرفض هذا التخثر الذى حاوط  
حياتى .. أن أرفض رجلاً لا يعطينى شيئاً .. يقتل كل رغباتى .. يحرمنى صدايح  
النهار .. وممتع الليل .. يحرمنى أن أكون امرأة .. لها الحق فى أن تكون لها  
احتياجات وأن تحقق تلك الاحتياجات .. على أن أحرك السكون أن لا أكون

بجرد حفيف ورقة في قلعة نائية ... يجب أن أكون شجرة .... أن أكون شمس  
ضحى مشرقة .

\* \* \*

حين دخلت روحى عمق الليل .. ونامت .. لم أكن قد وصلت إلى قرار ..  
لكننى في الصباح فوجئت بنفسى .. بالشجاعة التى حركتنى .. فرفضت أن  
أرضخ له .. أول ما فكرت به هو أن أهرب إلى مرمى .. إلى ذكرياتى .. إلى  
الماضى الذى سجلته على الجدران التى تفرح بلقائى .. ثم أن أذهب إلى موعد  
كريم الذى حددته .. أن أرتقى على صدره .. أن أبكى .. أبكى ... وأعلن  
له :

- أحبك .. بكل العنف الذى يمزقنى ... أحبك .. بكل العذاب الذى  
أما تبنى .. أحبك .. برغم نهر الزمن الفاصل .  
وبعد أن أسمع دقة قلبه . تعلن الفرح .. سأترك خيول الصمت تنطلق ..  
سأعلن له :

- نعم .. أنا امرأة وحيدة .. أنا امرأة تحتاج إليك .. تريدك .. تريد كل الحياة  
التي يمكن أن تفجرها حولها .. ويدخلها .. وبأعطفها الراقدة ..  
الموحشة .. نعم يا كريم أنا امرأة في الريح وحدى .. وأنت : أريدك  
الرجل ... البيت ... العشق الذى يرويني فقد جفت شرايبي .. تأكلت  
رغباني .. وحلك أنت ستعيد كل شيء .

حين تركته قابلاً في الفراش .. تلجمه مفاجأة التمرد .. لم أحس بأى شعور  
بالذنب تجاهه . لقد أعطيته من عمرى ما يكفى .. وأخذ من عمرى ما يزيد ..

وقبل فوات الألوان يجب أن أحفل بميلاد شمس جديدة .

غُصْتُ في ضوءِ النهار .. انني أحسها لأول مرة .. وجئت إلى مرسى ..  
أرسم شمس الضحى .. وأعلن لها أنها بداخلي تولد .. تنفجر .. وحين اكتملت  
أمامي نفضت الريشة .. آويتها قرب علة الألوان .. ودعت كل الوجوه .. كل  
الجدران .. ودعت أريكتي الوحيدة .. أسلمتها رائحتي .. وخرجت .. أذف  
نفسى لموعد كريم .

نسيتُ أنني هجرت بيتي في الصباح .. نسيت وجه زوجي المتكوم بعضه  
على بعض .. نسيت تهديده .. نسيت أن أسأل كريم إن كان قد عاد ليحقق أملاً  
خائباً أبي .. وخبْتُ .. وخاب زوجي أن يحققه لي ... كل ما كان يُهمني أن  
أنطلق .. أن أحمل مفتاح مرسى الذى حرمنى منه .. أن أدخل المفتاح المشتاق  
إلى الثقب المهجور ، وأنفَس رائحة ألوانى ... وأرسم شمساً تشرق من جديد ..  
ثم أهرع إلى كريم .. أعيد الانتعاش إلى روحى التى وارى فرحها تحت الجروح  
والحرمان . أن أبدأ من جديد . أترك للعشق أن يدخل من الأبواب المشرعة ..  
أن يعيدنى إلى ساحة الفرح .

في صالة الفندق الكبيرة بحثت عنه .. قال إنه سيكون بانتظارى .. حدد لي  
ساعة معينة : انتهت إلى أنني ألغيت الزمن حين ارتيمت في أحضان المرسوم ..  
نظرت إلى الساعة ... ياه .. موعدنا كان في العاشرة .. الوقت الآن الواحدة  
والنصف ! كيف مضى الوقت ؟؟ .

\* \* \*

تلفت .. جالت عيناى تستعرض الوجوه وجهًا وجهًا . لا ... لا وجه بين  
الوجوه هو وجه كرم .. لابد أن أسأل .

واقتربت من موظف الاستعلامات ؟ ابتسم .. لا أدري لماذا ابتسم .. التفت  
وراءه .. يده على ذقته .. وهو يتابع أرقام الغرف .. عند الرقم ٥٠٣ كانت  
ورقة صغيرة ترقد بجانب المفتاح .. استلها بأنامل رفيعة قدمها لى :

- انتظرك .. ثم ترك لك هذه الورقة .

- أين ذهب ؟؟

- غادر إلى مقر عمله فى لندن . كان قد جاء ليوم واحد !

شقى سيف حاد .. ترنحت قدماى .. جف بخلقى كل بلبل . نهاويت على  
أقرب مقعد .. فتحت الورقة .. لطمتنى الكلمات القليلة .. تبدو حانية ..  
صادقة .. كان يؤذ ... كان يؤذ .. كان يؤذ ... وأنا التى تأخرت .... أنا التى  
ذهبت لأرسم شمس الضحى المشرقة .. وشمس الفجر الذى تنفست فيه  
أخيرًا ..... أنا التى انتظرها أخيرًا ليراها بعد تلك السنوات الطويلة .. ليعرف  
ظروفها ليضعها فى قلبه .. الذى لا زال يحمل وجهها ويحفظ رسائلها أنا التى  
تمنى أن تهجر كل شيء عداه .. وتأتيه بنفس كمية الشوق التى يحملها .. وأنا ..  
حملت نفسى إلى هناك وأضعت الفرصة .. خيبة جديدة تصفنى فى أول نهار  
تُشرق فيه شجاعتى .

ثانية .. عدت إلى مرسى خائبة ... كل شيء معتم .. الوجوه على الحوائط  
عمياء .. بلا عيون .. جدعاء بلا آذان خرساء بلا ثغور ولا ألسنة .. ولا شيء  
يرحب بى .. نهاويت على المقعد الذى ودّع جسدى قبل زمن قصير . شعرت

وكان دبابيس قد نبتت في جوفه .. تطلعت إلى اللوحة التي لا زال عرقها  
طربا .. أين الشمس التي رسمتها ! كان الضحى .. ذلك الفضاء الناصع قد  
ارتدى ثوب حداد ، والشمس صارت قرًا ذابلًا تتقاطر من وجهه دموع ..  
سالت .. وأغرقت اللوحة .

بدأ المكان يضيق .. يضيق .. أحس بأننى خيط .. رفيع .. تهزه ريح  
صُرْصُر .. وأمامى ثقب الإبرة إما أن أندفع إليه .. وأدخل .. أو .. أبني هكذا  
معلقة في الهواء .

هل أستطيع أن أبلل نفس وأنفذ من الثقب ؟ هل حقًا أنا قادرة على أن  
أحدّد معالم الطريق لأعود إلى الثقب وأدخل نفسى فيه ؟؟؟

لا الشمس وضحاها قادرتان على منح بصيص من النور .. ولا الشبايك  
المغلقة المرتدية حزنها تسمح بخيط نور يقتحم المكان .

أغمض عيني .... بداخلها كان وجه العجوز الأدرد .... وكان وجه ريتا ،

\* \* \*

---

رويتى : الروية - العملة الكويتية القديمة ،



## المدينة .. الحلم ..

انتهت رحلة السير ، اللهاث ، والتعب .. والآن .. انظر هناك .. ستبدأ  
رحلة اكتشاف لماتين المدينتين المتنافرتين ..  
سَجِّل تاريخ البدء .

ذات يوم سجلت التاريخ الذى أحبيتك فيه .. كم مضى من الأيام ..  
الشهور .. والسنوات ؟؟ لا تقلق فإزلت أحبك .. وما أزال رفيقة الدرب  
والرحلة .. أثق الآن أنك من يستحق أن يشاركنى هذا السفر الطويل وممتعة  
الاكتشاف .

حين نعود .. سنحكى لناسنا أحلى القصص .. قد يصدقون .. ثم يحاولون  
الارتحال حيث رحلنا .. فالتجربة ممتعة .. هل تعرف ما الذى سيحدث  
بعدها ؟؟

لا تندعش . صدقنى .. ستحدث الفرقة .. سيتقاتلون . ما علينا الآن ..  
ها نحن نقرب .. انظر هناك .

\* \* \*

المدينتان تلوحان ..

- هل أنت خائف ؟

- أجهل ماذا هناك .. والجهل أب للخوف .

- معي ، لا تخشى شيئاً .. سأستيك .. سأقدهُ زناد الذاكرة تنتفضُ سنوات

الطفولة .. والصبا التي أحسها مرة .. كنزة الماء البارد حين تشتد حرارة

العالم حولي .. فأستدرّها .. أتبلل بها .. ومرة أحسها كالسوط تجلد

ضلوعي .. تعذبني .. فأتمنى لو بُحْتُ لها حتى للهواء .. وحين أهِمُّ بذلك ..

أتراجع .. أخشى أن تفرّ مع الريح الصارخة إذا انفلتت من سجنها الدفيء .

أن تخاصم ذاكرتي ولا تعود ..

هي فرصتي الآن وأنت معي .. أن أسجلها هنا .. عندك .. فهل تملك

ذاكرة قوية ؟؟

- يشهدون لي بذلك .

- إذا .. اتفقنا . لو فقدتني يوماً فاستخرج هذه الحكايات . حلت الناس

بها .. أحب أن يعرفوا كل شيء . انظر ..

- ماذا هناك بالضبط ؟؟

- ستعرف كل شيء .. هنا .. وهناك .. بعدها ستختار أين تنام .. وتبقى ..

وتعيش .. فلا تسأل قبل أن نخطو الخطوة الأولى .

\* \* \*

« حين خَطَّنتَ قدامى خطواتها الأولى .. دُستُ على موقد النار في بيتنا

المهادئ . في ذلك الحى الذى دفنوه الآن تحت هياكل الأبنية الحديثة المرتفعة .

لقد قتلوا كل ذكرياتنا .. وماضينا .. لم يتركوا لنا شيئاً .. نهبوا حكاياتنا المرشوشة



على الجدران .. وأحرقوا بقايا البخور الذى كان يفوح فى ليالى الأعراس ..  
والأعياد . دفنوا مواقدنا التى لم أكرهها حتى عندما أحرقت نارها قدمى  
الناعمتين .

يومها ربطت أُمى قدمىَّ بالحُرق البالية الملونة .. بضع فضلات من أقشة  
تخيطها للجيران والأحباب .

كانت على موعد لتقيس لأحداهن .. حملت « بقشة » الثياب ونظرت إلى  
وجهى . قالت بحسرة :

- المسافة بعيدة ..  
- أبقى فى البيت يا أُمى ..  
- وحذك : لا ..  
- هلعت أُمى .. ثم قالت بحزن :  
- سأضطر لحملك كل الطريق .  
خيلىَّ إلىَّ أننى أحببتها كثيرًا تلك اللحظة . وأشفقت على جسدها النحيل من  
أن يحملنى حتى وإن كنتُ طفلة تزحف نحو سنواتها الست .  
قلتُ لها :

- دعنى أَمْشى .. لا يؤملنى الحرق .  
وكأننى سمعتها تهمس :  
- بعض الألم يعيق الخطو .  
وكأننى صرخت فى داخلى :  
- لا .. بل الألم يدفع إلى الجرى .. كلما دسنا على موضع الألم قتلناه .. ومات

الإحساس به ، فتمشى .. لا نكثرت .. وسأمشى هذا الطريق .  
 لكن كفف أُمى حملنى .. وحين وصلنا أنزلتنى وقالت هامة :  
 - أرجو ألا يعوقك الله يوماً .

\* \* \*

أنظر إليك الآن .. قدمائى صلبتان .. أنت بانتظار الخطوة الأولى .. إلى  
 المدينة الأولى .. ثم الثانية .. وأنت معى .. رضيت أن ترافقنى .. أن تحببى ..  
 لا يضيرك أن تجازف .. وتسلل بالطبع .. سأفكُّ عقدة لسانى .. قلت لك  
 سأحدثك عن سنوات مرّت وسيكون الطريق أمامك قصيراً .. ممتعاً .  
 هو ذا الطريق .. المدينتان تلوحان .. متناقضتين ، والخطوة الأولى ..  
 كخطوة الصبا المتعشة أيام الربيع .

\* \* \*

« أيام الصبا أحبيت لأول مرة . كنت بعد لا أعرف كيف أتعامل مع الرجل  
 الذى أحبه .. نظرات .. خجل .. ثم نظرات .. وإبتسام .. ثم نظرات .. ولقاء  
 أصابع مرتجفة .. ثم نظرات ورسائل قصيرة ملونة أشتري ورقها من مصروفى  
 المدرسى وأدسها فى يده كلما التقينا .. ثم نظرات .. وأمنيات تداعب القلب ..  
 والجسد أن يرتقى فى أحضان الحبيب ليدخل التجربة الأولى .. ويتعرف على  
 الحب بشكله الآخر . لكن المستحيل كان .. أين نلتقى ؟ وكيف ؟ ومتى ؟ وعيون  
 الناس كلها تدّخِر لحظاتها لترصد .

فشلت فى أن أكون حبيبة كاملة .. والرجل يريد .. وأنا لا يهينى .. فالقلب

الصغير يجب مرات .. ومرات .. وحين يكبر يجب مرة واحدة فتكون التابوت الأبدى » .

- ما بالك تنظر إليّ هكذا؟؟
- تقولين أن الحب هو التابوت الأبدى !!
- أحبيتك أنت .. تلك هي المرة النهائية .. أعني .. أموت وأنا لك وحدك .. أنت الأبد بالنسبة لي .. هل غضبت؟؟
- لا .. ولكن كانت تلزمك بعض النصائح وأنت صبيّة ..
- كانت أمي تفعل ذلك .. تلالُ النصائح والتوجيهات تتراكم في رأسي .. أكرهها .. أضيق بها .. وعندما كبرت اكتشفت أنني قد استفدت من تلال الحب التي كنت أتصورها تلال حصار لأهوائي ورغباتي وأمنياتي الخضراء .

فشلت في أول حب .. عشت على أمل أن أحب للمرة الثانية ، الثالثة ، الرابعة ، حتى يجهز التابوت ..

- مصرة أنت على التابوت كأنك ميتة .
- وأول مرة رأيت فيها ميتاً ممدداً على الخشبة المبللة بالماء .. كان ذلك حين عدت من المدرسة .. رأيت شارعنا يغص بالرجال .. وبالحزن .. وحين أردت أن أقطع الطريق إلى بيتنا نادى باسمي أحد الجيران :
- اذهبي من الناحية الأخرى .

لكن الفضول دفعني إلى أن أسد أذني .. مددت خطوي واقتربت .. فاجأتني جثة جازنا على الحامل الخشبي .. أصابتنى زعدة ما صحت منها إلا حين

- صفعنى كف الرجل الذى أمرنى بأن أبتعد .. صرخ فى وجهى :
- ألم أقل لك اذهبي من الناحية الأخرى ، هيا إلى بيتكم . لكن القدم لم تحملنى .. والرعدة المسعورة انتهكت صمت كل شيء فى داخلى .. أشفق على الرجل .. وحملنى .. لم أكن طفلة يومها .. فكان لذاك الحمل تأثير على جسد الصبية .. كانت للرجل رائحة غريبة .. لكنها ممتعة .. يومها ظللت أحلم برجل يحبنى .. وحملنى .. ويتشلى من أية لحظة رهيبية . متمردة إلى حيث الأمان .. إلى مدينة تكون لى وحدى .
- سأحملك .. وهيا .. لندخل إلى المدينتين .
- لا .. حملتنى كثيراً .. واختملتنى .. أريد أن نخطو معاً .. خطواتك تتناغم مع خطواتى .. نغضى سوياً .



انظر...

هى ذى المدينة الأولى .. هادئة .. موعلة فى أحلامها . تستطيع أن تخلع حذاءك .. أن تمشى عارى القدمين فتلامس العشب الناعم التنظيف والترية الرطبة .. الأرض ممتدة بحنان أخضر .. رائحتها تشبه رائحة اللبن أول فورانه .. فى سمائها ترفرف حائم بيضاء كرايات مولودة للتوفى قلب غيمة .. تستطيع أن تنام عارياً رغم برودتها .. لن يسمعك بردها .. تدفئك أحلامك . وفى الصباح تستيقظ على هديل الحمام يرفرف مسالماً حراً مغروراً بالقضاء التنظيف .

والآن .. انظر إلى الناحية الأخرى .. ماذا ترى ؟؟

- الله .. تلك مدينة رائعة !!
- بالضبط .. إنها تثبت كعشبة أبدية .. تنفض كامراً في لحظة نشوتها ..
- لا تفل جبالاً عن الأخرى .. لكنها ....
- أجل .. تختلف .. تلك هادئة ودیعة .. لكن يبدو أنها مملة كذلك .. أما
- هذه .. يفوح صراخها .. صخبها .. تبدو مثيرة تستغفر الفضول .
- كأنها مدينة من الورق .. هشة .. يخيل إلى أنني لو لمستها يدي لتناثرت .
- لكنها مغرية .. أراها مكسطة .. صارخة .. يبدو أنها لا تعرف النوم ...
- ولا الراحة أيضاً ..
- لماذا لا ندخل تلك المدينة الصاخبة أولاً؟؟
- هل تحب أن تموت قبل أن ترى الأخرى ؟
- هل هذا تخويف ! أم حقيقة ؟؟
- الموت هناك يترصد البشر ! ولو حدث ومُتَّ فمن سيحمل جثتك ؟ من
- سيسترها ؟ من سيصلي عليها ؟؟
- الناس !
- الناس هناك لا يعاونون إلا بأنفسهم .. والموت يأتي من رصاصته ! والجثث
- تغطي الأرضة .
- لكنها مغرية .. وتلك المدينة تبدو موحشة .. صامتة .. لا أرى فرصة لانبثاق
- النور منها .
- نستطيع أن نخلق النور .. أن نضيء شمعة .. تلك مدينة تعودت أن تهدأ ..
- تنام .. تحلم .. مدينة قوية طبيعية عروقتها في الأرض .. ورأسها نحو
- السماء .. تلك مدينة صلبة منذ قررت أن تكون كذلك .

- إذن .. تفضلين أن ندخلها أولاً .
- بالطبع .. وسترى الأخرى بعد ذلك - وإن رَحِمَتْكَ السماء ولم تُمِتْ ..
- ستختار أين تبدأ ثانية .
- هل نحتاج لشيء معنا ؟ أقصد .. سلاحاً .. مؤونة ؟
- يا عزيزي .. هنا .. لا أحد يبيع .. الكل يجد له طعاماً .. إنهم لا يتقاتلون
- لأجل اللقمة .. لأنها تأتي وتوزع بالعدل .
- خيمة تستر تحبها !
- ستجد الأمان أينما حللت .. حتى لو نمت تحت ظل شجرة .
- شيء تتسلى به ....
- هذه المدينة مليئة بالألعاب المسلية ... وفيها أطفال سعداء ... ستلهو معهم
- ستنسّم من ابتساماتهم عطر السعادة .. تحسهم بلا عاهات .. بلا عقد ...
- فرحين يعيشون في سلام دائم .
- هيا .. اقترينا .. الحشائش تلتهم .. تغريك بالنوم .
- ولكن ! هذا الصخب الآتي من هناك ..
- صخب المدينة الأخرى .. لا تخف .. سيفلقلك لفترة صوت المهرج والرقص
- محتللاً بأصوات الجوع .. والرصاص .
- انظر .. هناك حديقة من الرمل الناعم .. مثلها كثير .. إنها متاريس تحمي
- الأطفال .. وتمنع الشر .. فلا تخشى أن تصيبك رصاصة قناص ..
- الرصاص لا يخترق الرمل .. المدينة محصنة .. أهلها لا يخيفهم الرصاص ..
- ولا ألسنة النيران المندلعة .. تماماً كما لا تغريهم صيحات الرقص .. وروائح
- البضائع النادرة :

- أنت تعلمتى ..
- وستنام هنا .. مطمئنا .



- جسدى يتشرب برودة الأرض .. عيناي تجولان فى عالم أخضر .. الشجرة الباسقة تمنحنى شيئا من الأمان ونحن نستريحى عند ساقها العريض .
- ترى اكم من السنوات عاشت هذه البقعة الخضراء ، وهذه الشجرة اكم من الأطفال عبثوا سعداء تحت ظلالها ؟؟
- إذا كان أطفال المدينة آمنين كما تقولين ا فآلاف منهم رتموا تحت ظل الشجرة .
- سقطت ورقة على وجهى .. سحبنا .. تأملتها . خطوطها منسقة .
- انظر كيف خلق الله هذه الورقة كيف نسقها وبعث بها الحياة .
- الأوراق تموت حين تسقط .
- « كنت أعيد الحياة للورقات المتساقطة .. يوم أحيت رجلا كنت أجمع أوراق الشجر فى كل مكان زرتة .. وأكتب عليها اسمه .. وتواريخ لقاءاتنا .. وأضعها فى كتاب حتى تجف .. تموت عروقها .. لكن لونها الأخضر يبقى .. ويبقى الاسم وشما دائما . »
- أين تلك الأوراق الآن ؟؟
- يوم أحبتك أحرقت كل الأوراق القديمة .
- كان من الممكن أن تنسحق تلك الأوراق كذكرى .. كنوع من الديكور ..

- ليس سهلاً أن تنشق الأوراق الجافة .
- وكذلك البشر ، كُلُّ له طبعه .. ومزاجه .. وأحلامه .
- آه .. لو نسقوا صفوفهم حقاً .. لغمر السلام أنحاء الأرض .. انظر إلى هذه الشجرة .
- ساق ضخمة تحمل كل تلك الأوراق .. ربما آلافاً .. ملايين .. من يدرى .. هل نعوها ؟
- إن ما يدهشني حقاً .. ليس عددها .. بل تألفها .. كل هذه الأوراق تستمد الغذاء والقوة من هذه الساق ، وأتساءل .. لماذا لا تجمع هذا العالم ساق واحدة !
- أمنية .. بعيدة المنال .. ها أنت ترين مدينتين مختلفتان :  
هدوء .. صخب .. سلام .. حروب .. ومن يدرى ! لم تحدثني بعد عن تلك المدينة .
- ستدخلها .. وترى بنفسك .
- أحب أن أسمع .
- أخشى أن تغريك .. فتفر الآن من قري باحثاً عن المتع .
- إلى هذه الدرجة ؟؟
- أجل .. هنا . كما قلت لك .. لو نمت عارياً فستدثك أحلامك . ولكن هناك .. لا بد أن تلبس الحرير .. وتتعطر .. المدينة الكرنفالية ترفض من لا يساير أهواءها ..
- أليس الإنسان حرّاً يلبس ما يشاء ؟؟
- لا ! أنت مقيد .. عليك أن تحب أشياء كثيرة تكرهها .



- أنا لا أحب إلا النساء .
- لا عجب فى ذلك ... تلك مدينة الخمر .. والنساء .. والرصاص ..
- ونساؤها .. هل هن جمال خاص ؟؟
- جميلات ! لكنهن غادرات .. قد تكون المرأة خنجرًا يندس فى خاصرتك لحظة انتشائك . وتتصور أن فى داخلك كثرًا .
- والخمر ! إنها تفرج الكرب أحيانًا ..
- ستشرها .. وحين تفيق ستفاجأ بأن أصابعك قد سرت .. أو ... ربما لا تفيق .
- هناك ينفجر نهر الزمن فى لحظة .. فيتزف دمًا أحمر ! وتنسى المرأة .. والخمر ... والرقصة اللذيذة .. والحرائر .
- أحمل سلاحًا .
- لن يفيد ! يجب أن يكون لك ناب .. ومخالب .. وقبضة مصارع تسدها إلى الخطر الذى يأتى فجائيًا .. أما السلاح فأمره سهل .. فهناك يقات تجار الأسلحة من صراع البشر .. كلما تهاوت جثة صنعوا رصاصة .. وكلما احترقت مدينة .. صنعوا سلاحًا .
- كلما أغرتنى بهجة تلك المدينة .. أرعدتنى كلماتك عنها ، هل تخشين أن أذهب وتعجبني .. وأبقى .. هل تغارين من نساها ؟
- لم تر بعد نساء هذه المدينة إهن أجمل .. وأروع ..
- ألا تخشين منهن ؟؟
- النساء هنا مختلفات يعشقن ولا يقتلن .

- يبدو أننى لن أكمل الرحلة .. غداً نعود من حيث أتينا .  
- لا .. أريدك أن تذهب إلى تلك المدينة .. لا بد أن تدخلها . تراها عن  
كتب . عليك أن تختار .. أن تجرب .

\* \* \*

كانت التجربة قاسية !

تصلبت عيناى المترعتان بأحزان الدنيا فى عينيه .. أستجلى منها نظرة  
رحمة ! بادرة تعيد إلى أوصالى وزنها المتهاوى :

- أبى .. لا تفعل ! لا تترك البيت ...  
شدّ على يدى .. اهتززت كفصن .. تناثرت شجاعتى ..  
تهاويت .. لملت قلبيه .. ركلنى وزمجر :  
- وسأخلّك معى !

ما أقساه !!

إذا كان للزمن وجه أقسى من الحجر .. فقد كان وجه أبى لحظتها أقسى من  
الزمن .. أقسى من سيف يترنى .. يفصلنى عن حنان أمى .. عن كفها  
الذى حملنى جريحة وعلمنى المشى بعد ذلك .

وزحفت إلى حضن أمى .. كان دافئاً رغم البرودة التى تناوبت رعشاتنا  
عليها ، وكان الحزن فى وجهها جرحاً طرياً يتر دمعاً .. ويتقاطر دماً .

ومن بين شففتين صفراوين .. انتحرت فيها الدماء قالت :  
- كبرت البنت ... هى التى ستختار ..

وهدر صوته حادًا بئارًا لكل ما قد يأتي من ردود حتى وإن كانت متوسلة ..  
متهاوية بذلها :

- لن تختار .. لقد اخترت أنا .. وسأخذها معي .  
ورابطت في حضن أمي .. كم من الأيام ! والأسابيع ! والشهور !  
لا أدري كم انتظرت حتى جاءت لحظة الاختيار . وصوت القاضي يتلاطم  
في بحر الصمت قبل أن يصل إلى أذني :

- تريدن أمك .. أم أباك ؟؟  
واريت وجهي عن أبي المترصد ردّي .. وعن وجه أمي القانع كأنه يثق بأن  
البذرة لن تختار إلا أرض الخير التي نبتت منها .  
وأنا ....

تضطرب الأشياء داخل نفسي وعلى أن أختار .. من هنا .. من شفتي  
المبثلتين بدمع أمي المالح التي رقدت في حضنها فترة الانتظار . يجب أن  
يصدر الحكم .  
لحظة الفصل .. الاختيار .. الحكم الأخير ... أنا التي سأنطق به .  
كانت التجربة صعبة .

أن تختار بين أرضين رغم قناعتك بالفرق الشاسع بينهما . أرضين لمست منذ  
وعيت مداهما الممتد .. تلمست تربتها اكتشفت كيف تكون التربة الجافة التي  
تتصارع ديدانها لتغثال أشجارها المشنوقة .. فلا يسدل منها فرع ليظل قبط  
الطفولة .. وتربة تتلنى بفيضها الدائم .. بخيرها الذي ينبع صافيًا كلما انهالت  
عليها شهوات السماء .

اللحظة .. رغم قسوتها حاسمة .. هكذا يجب أن تكون .. مرة في العمر  
تختار الطريق بعد التجربة فتعتاد المشي في الدروب بلا تردد

\* \* \*

وأنت !  
عليك أن تختار ..  
- أختارك أنت .  
- وأنا اخترتك .. آلاف الحصار كانت بيني وبينك .. وبين الغد ..  
زمن يرحل .. وزمن يليه ... وفي الأفق كانت أزمان نجعلها .. لكننا  
تمنيها .. قرصنا ليالينا .. همزناها كما تهمز الخيل لتجري .. تسابق النهار ..  
والنهار .. والنهار ...  
- حتى أشرق النهار .  
- غداً .. يشرق أيضاً .. ستزور المدينة الأخرى ..  
سأنتظر قرارك .. حتى تلك اللحظة سأبقى أحبك .

\* \* \*

واجماً تأتي ..  
صامتاً تعود ..  
خطاك ثقيلة .. وجهك أصفر ينبئ عن أرقٍ لازمك ، وضيق باتٍ في  
صدرك .  
وعيناي !  
علامتا سؤال .. حائرتين .. هل أسألك ؟؟

لكن حصارًا كالريح يداهنى .. بلفّ بي .. تأتى الصور .. تدور ...  
 قدماى المحروقتان .. الثقيلتان .. وجه أبى لحظة اختيارى تجمد .. تقلّص ..  
 فقدّ آخر نقطة دم .. حين أعلنت : أريد أمى .. وجه يحترق كتلك الأوراق  
 التى أحرقتها .. وجه الميت المصفر المسجى على نعشه ! وأوراق الشجرة  
 الكبيرة .

الحصار يدور .. أدور .. وأنت تقترب .. أحسك وكأنك تهرب فى كل  
 العالم لتندس فى صدرى .. تشهق تبكى .. يغسل الدمع صور البشاعة التى  
 علقت فى بؤبؤ عينيك .. وقلق الليل الذى عانيت .

تأتى .. شفتين جافتين تعلنان بصلق .. هنا .. صدرك مديتى .. وكل  
 المدن هذه ليست لنا ..

أفتح ذراعى .. أحضنك .. أشم عطر شعرك .. أحسسه ، عطر مدينتنا  
 المنتظرة .. أحس أن الوطن أنت .. وأنت المدن .. وأن التجربة الوحيدة  
 الناجحة هى أنت .. يدك تحضن يدى .. عينك تقولان :

- تلك مدينة كريهة ..

أسبل جفنى .. أوافقك .. أتلقت إلى المساحات الخضراء التى حولنا .. إلى  
 الشجرة ذات الساق الضخمة .. أوراقها .. الكثيرة .. كأننى أسألك ..  
 وهذه ؟؟

يخرج صوتك الحبيس :

- علمتنا المدن .. ونستطيع أن نزرع شجرة .. بل أشجارا .

- إذن .. تقرر أن نعود ..

- أجل .. هناك سنحدث ناسًا . وقد نستطيع أن نبني مدينتنا من جديد .



## لا يصلح للحب

عند إشارة المرور التقت نظرانا .. كانت له عيناان جميلتان ، عينا صقر  
قويتا النظرة ، عيناان اعتادتتا التفرس والتحديق في موقع الفريسة .  
حدجني بنظرة حملها كل ودّه .. أرفقها بابتسامة . أحسست بعذوبتها  
تتقاطر . تود لو تبلل وجهي ، لكنني خيبت أملها .. وأملها ، حدجته بنظرة  
بصقت معها كل احتقارى .

من يظن نفسه ؟؟

هل يتصور أن عينيه تغريان امرأة مثلى تحررت منذ شهور فقط من سجن  
تجربة مريرة ، وقبل خمسة أيام فقط استطاعت أن تتمالك أعصابها لتقود سيارتها  
وكان كل خوفها أن يتبعها ذلك الرجل الذى انفصلت عنه فيطحنها انتقاماً  
ويساويها بالرصيف .

\* \* \*

حين نطق القاضى حكمه صرخ :

- لا .. أنا لن أطلق وحكمك باطل .

قال القاضي بهرود أعصاب حسدته عليه :

- انتهى الأمر.. القضاء خير فاصل بينكما .

قال بكل جرأة ووقاحة :

- أنا أحبها !

التفت نحوه ، شحلت بعض الشجاعة وأنا في حضرة القاضي  
وصرخت :

- ولكني لا أحبك . ولم أحبك يوماً .

قال :

- هذا ليس كافياً ليتم الطلاق .

نقر القاضي بيده على الطاولة :

- اسمع يا هذا . هناك سبب جوهري ، أنت تعرفه ، من حق المرأة أن .....

وقاطع القاضي ...

تريد أطفالاً .

قلت :

- نعم أريد . خمس سنوات كافية . وأنا امرأة من حق أن أحضن وجه طفل .  
لو كان قد جاء لأنساني المتاعب الأخرى التي عشتها معك .

\* \* \*



كان يفرغ عقده كالسم فتسرى في بدنى ، كنت أتاكل وأنا أرى وجوه  
الأطفال في كل مكان ، وأحسد الأمهات ، وأشفق عليهن من حسدى ماذنهن  
إذا كان قدرى وأنا العاشقة لعيون الأطفال أن أحرم منهم ؟

وكان حين يلمح نظراتي المشحونة حبًا واشتهاء لوجوه الأطفال يثور ،  
وأحسه يطحن غيظه تحت أسنانه . يزفر وتصبر له نظرة حمراء يفرسها كالناب في  
لحمى فأخاف . وأحوّل نظرتى وأستجدى رضاه . كنت أعلم أنه في البيت  
سيحول الأمر إلى جريمة ارتكبتها ولن يتردد في ضربى أو شد شعرى . وكنت في  
كل مرة أقدر أن أقصه حتى لا يجد ما يعطيه الفرصة لإذلالى . ولكن لا أدرى  
لماذا كنت لا أفعل !

وذات يوم قررت أن أكسر قيدي . صرخت فيه :

- طلقنى .

قال :

- لا تحملى .

قلت :

- سأرفع قضية .

قال كأنه يذكرنى بأنه رجل :

- سأماطل ... سأتهرب ، . سأجعل قدميك تحفيان وأنت تتمرغين في أحلامك

بين أروقة المحاكم .

حققت عليه :

- هل تقبل امرأة تكرهك ، ترفضك ؟  
قال بغرور :
- لا يجب أن ترفضني أنت . أنا الرجل . وأنا الذى أقرر ، أبقيك .. أو أرفضك .
- وكرامتك ؟؟
- هو ذا معنى الكرامة . يجب ألا ترفضنى امرأة . أنتن كالأحذية نستبدلها متى شئنا .

\* \* \*

- شهور طويلة مرت .
- ليال قاسية باردة تعصف بى ، تحولنى مرة إلى قطة وديعة فأحاوره بلطف .. وأرجوه أن يطلق سراحي ، ومرات أنقلب إلى نمره مفترسة أغرس أظافرى فى لحم الخنذة وأصرخ .. لكنه بهرود يلتهم حوارى ، ويشمت بضغفى . يستبيح تعذبى وكأنها الوسيلة الوحيدة التى تحرره من عقده .
- أخيراً لجأت إلى المحكمة ، فهزأ بى ... لكن المحامى طماننى :
- هو يريد إحباطك ، لكنك ستكسبين القضية .
- وصرخ هو فى وجهى :
- ستطعنين فى رجولتى حين تعلنين أنى عقيم !
- قلت له :
- تصور لو كنت مكانى .. ماذا كنت ستفعل ؟؟
- قبل أن ينتفخ كالديك ويفتح فمه كنت أكمل :

- ستزوج امرأة ثانية لتحقيق مرادك .  
ولطفاً من لهجته :
- ولكنى سأبقى عليك .
- شفقة وحسنة منك .. أنا لا أستطيع أن أبقي عليك . وليس مسموحاً لي  
بزواج ثان .. أية مصيبة قيدتنا بهذا الشكل ! لماذا ندفع اللئن؟؟

\* \* \*

- دفعت كثيراً للمحامى .. دفعت من أعصابي ، من راحتي ، وحين أعلن  
القاضي الحكم نسيت كل شيء ، شعرت بأنني ولدت عصفورة وعلى أن أخلق  
بعيداً . لكنه ركض خلفي ، كان صوته عاليًا يهدد :
- سأقتلك .. سأهرسك بسيارتي . سأحرمك الحياة .
- واختفيت ! شهوياً وشهوياً أخشى أن ينفذ حكمه وأخسر عمري بعد أن  
تصورت بأنه بدا بعيداً عن رجل سرق منه خمس سنوات مظلمة لم يستطع أن  
يهديني خلالها وجه طفل .

\* \* \*

نعم وجه طفل ... وليس وجه رجل ألنقيه عند إشارة المرور !  
لكنه حلق ..

شحن النظرة بالود .. بالرغبة .. بالحلم أن أبتسم له ، أبادله الفرحه . وبعد  
ذلك يلحق بي بسيارته ، يقف .. ويتصور أنني سأقف وأنتقل بكل بساطة إلى

جانبه تاركة سيارتي على الرصيف يهلع قلبها لأجل .

سيادرتي :

- إسمك ؟

سأخترع له اسمًا .. أى اسم سيعفى لسانى وينطقه .

ثم :

- من أنت ؟

سأخترع له كذبة جديدة .. أنا ابنة فلان ، أعمل فى مؤسسة كذا .

و ..... عازبة !

سيرتعش . بالطبع سيتمنى لو كنت امرأة !. سأكون أسهل عليه . لكنه  
لن يعدم وسيلة يثير بها اهتمامى لعل وعسى .

طرت بسيارتي . تمهل هو . لابد أنه يلتقط رقم السيارة . وسيحظى  
بصديق له فى إدارة المرور يستخرج له الاسم ، والعنوان ، ورقم الهاتف  
و ...

ألو .....

- من أنت ؟؟

- أنا الذى قابلتك عند إشارة المرور .

- وماذا بعد ؟؟

- ابتسمتُ لك .. فكشرت فى وجهي .

- مادمت كشرتُ في وجهك . فلم الاتصال؟؟
- أعجبتني .
- وأنت لم تعجبنى .. ولن تعجبنى .
- جري .
- ....و
- سأغلق الخط في وجهه .
- مرة ثانية .. سوف يعاود الاتصال وسأصرخ :
- ماذا تريد؟؟
- لقاء .
- يا كلب .
- الكلب اوفى مخلوقات الله .
- ياوغد .
- وسأصفق السماعة .
- لن يتعب . ولن يئأس . رجل واثق من نفسه :
- أرجوك لا تكوني عصبية .
- ماذا تريد؟؟
- لهجتي ستكون أهدأ .
- قلت أريد لقاء

- لماذا؟؟
- بعض الرقة فى صوتى .
- لتتعرّف .
- ولكنى لا أريد أن أتعرّف .
- فى لهجتي دلال .. وتردد .
- حاولى . ولن أضايقك .
- هل أنت صادق فيما تعدُّ به ؟؟
- لهجتي فيها رضى .
- أحلف لك .
- وماذا بعد اللقاء ؟؟
- لهجتي فيها مودة .
- أبدًا .. قد نكون بعد ذلك أصدقاء .
- أصدقاء ؟؟
- فى لهجتي نبرة أمل .

\* \* \*

أمل داعينى .  
أحتاج حقًا لصديق .. الشهور الطويلة التى تنقلت فيها وحفيت أقدامى

وأدماها شوك المتابعة ، أفقدتني كثيرًا من الأصدقاء .

كنت لاهية عن كل شيء . وبعد الطلاق ، افتقدت كثيرًا من العلاقات التي  
 بنيتها يوم كنتُ زوجة . النساء لا يرحبن بي . كل واحدة تتصور أنني سأسرق منها  
 زوجها .. والرجال تحولوا بقدرة قادر إلى ذئاب تلاحقني ألسنتها اللاهثة بشبقها  
 العنيف .

عشت في فراغ احتواني حتى كدت أحس أنني وحيدة في هذا الكون .  
 لا أسمع سوى صدى صوتي ولا أرى إلا خيوطاً متحركة هشة لا أستطيع  
 الإمساك بها . ولا الإفلات من مراقبتها وكأنني سأحظى يومًا بنحيط متين أتعلق به .  
 يبرجحنى ثم يغمرنى ، يلتف حولى وأشعر بالأمان .

صديق !!!

نعم . أحتاج لصداقة .. لمعبر أمر منه فارةً من الكوابيس والأحلام إلى  
 الواقع ..

سيعترى صوتى الفرج . سأسأله ثانية لأؤكد :

— أصدقاء ؟؟

— نعم . لم لا ؟

— .....

سيختنق صوتى .

— لا تردين ! هل ترفضين دعوتى ؟

- أين؟؟

أخيراً .. لهجتي فيها القبول .

- أى مكان تريدین .

- أعشيتى أن يرانى أحد .

لهجتي فيها تردد .. ألسْتُ امرأة مطلقة؟؟

- كل الأحـد هذا يخرج .. ويعيش .

- ولكن كلام الناس دبايس تسمى . فتثير الراححة .

- هواية الكلام لن تغفلك حتى لو كنت فى ققم .

- إذن . اختر المكان . أى مكان خال من البشر .

- سأختار . سنلتقى يوم كذا .... الساعة كذا ... و.....

سأغلق الساعة .

\* \* \*

فى الليل سأقلب ... سأقلب .. سيكون الفراش شوكة . ما الذى  
سيحدث؟؟

رجل له عينان جميلتان . لا أعرفه . يدعونى للقاء وأنا امرأة خاضت غمار  
تجربة فاشلة . هو لا يعرفنى . فهل أجرو أن أقابل رجلاً وكل الرجال من حولى  
ذئاب وصقور؟؟



سأحزن .. إذ تترسب هذه الفكرة في رأسي هذا يعني أنني سأحرم نفسي  
فرصة قد تكون ذهبيّة . سأحرم روحي لحظة تسافر فيها إلى مدن العشق والعرشة  
والاستشفاء من مرضها ، و.....

سأداعب جسدي .... وشفقي : سأحرم هذه الحيوانات الصغيرة الراكدة  
في هذا البض الوسيم أن تختار عشقاً يدغدغها : ويوقظ فيها نبرات جفت وارتحل  
عنها موسم الربيع .

أليس هذا ظلماً ؟؟

النار تحرق .. هذا صحيح . لكننا نحتاجها لندفأ . الماء قد يفرقنا . لكننا  
لا نستغنى عنه ليلاً جفاف حلوقنا في مواسم العطش .

الأشواك كلها تدمي لكننا نكون قد شممنا عطر الزهور التي نحرسها .  
لماذا أحكم على كل الرجال بأنهم ذئاب فاسدٌ باب الأمل أمامي .. الأمل  
في أن يكون لي طفل أعانق وجهه .

كيف ؟؟ ولماذا سيأخذني التفكير إلى هذا الحد ؟؟ أليس من الممكن أن  
يكون متزوجاً وله أطفال يعانق وجوههم ؟ أو أنه يريد أن يتسلى ؟ أن يغير طعم  
حياته التي ربما ركبت بفعل الوقت ومرور السنوات فمَلَّ وجه زوجته .. أو ..  
ربما هو يحيا .. لكنه فقط يريد أن يعيش تجربة عابرة .

وأنا !!

هل أكون ابنة السبيل المتسولة السهلة التي تنتظر المنحة ؟؟  
أنا بحاجة إلى رجل . رجل حقيقي . رجل لا تتواطأ نظرتة مع ما بداخله من

حيوانية وتوحش . رجل لا يستطيع لنفسه بمجرد نظرة تجردنى من أصغر ما أرتدى .

ولكن ! أين هذا الرجل ؟ أغلب الرجال لا يصلحون للحب .

الرجل الذى أريده له مواصفات معينة . أريد أن تكون له نظرة لا تخدشنى . ولا تعزبنى . نظرة رطبة حانية . تحتوينى . خجولة تحترمنى .

آه ... هل يوجد رجل كهذا ؟؟

وهذا الذى غرس نظرتة الصقرية فى مسام عيني . هل أعطيه الفرصة ؟ هل أعطى لنفسى الفرصة ؟؟

لا .

لقد كانت عيناه مركبتين . واثقتين . فيها إصرار ، فيها كلام يقول :

« لن تعصى على امرأة . أنت ككل النساء »

هل أصبح ككل النساء التافهات ؟ هل أسلم نفسى لعينه تنهشان حتى العظم ؟؟

لكن عينيه جميلتان .

ما أهش جناح الفراشة الجميل .

سأطوى نفسى . سأعاقق دفة المكان . سأطرد عينيه الجميلتين . سأحول أن أنسى يوم كذا ... الساعة كذا ... وسأرحل فى نوم لذيذ .

\* \* \*

## دقات المطر

مطر....

مطر....

والغيوم عرائس يبيضن تتعانق في السماء . ثم تنفرش ، ثم تتلاصق ،  
تتزوج ، تطلق شهقة ، تلتمع ، تضيء ، تلد المطر . خير يجلب من السماء ،  
والأرض تفتح نفسها ترتجف إذ تُفرغ النشوة بداخلها . تمتص . وتزهو . وصوت  
الزخات له رنين عذب كأغنية أم تتهدى إلى أذني ، تنزل إلى قلبي . أحسها .  
أسمعها :

ثم .. ثم .. ثم .. ثم ..

هواء باريس يلفح وجهي ، مداعبًا تارة .. وقاسيًا تارة أخرى . يدخل إلى  
رثتي باردًا ، ناعمًا له رائحة الصبر والأمل .

الزحام شديد . ونظراتي تبتلع الوجوه التي لا تجد لها مكانًا في الذاكرة . نهار  
يركع للاهتئين المتراحمين على المتاجر ، على أفران الخبز ، على الباصات ،  
والتاكسيات ، على المقاهي ، كل وجه يحمل بصماته وحكاياته . وتشتمل

ذاكرته بآلاف الأسماء ، والمناسبات ، والتذكارات . كل ذكرى تحمل  
طعمها ، حلاوتها ، مرارتها ، ووجعها !! لابد أن كل العيون ترى فيه حيرته ،  
وربما قصته ، أو ربما تفيض منه هذه الأفكار التي لا تهدأ ، تتسارع تخطو معي  
كلما خطوت خطوة على الأرض المبللة .

المطر يلتصق على الأسفلت الأسود .. ذكرني المشهد بوجه المرأة الأفريقية ؛  
وهي في لحظة مخاضها . مشهد رأيته في أحد الأفلام وتقلصت عضلاتي .. يومها  
قررت ألا أمر في لحظة كهذه .

الماء جداول تنحدر إلى الأطراف حيث تبتلعها فتحات المجارى . هنا يصب  
العرق . والجداول .. آه لو تصب هنا كل الموروثات البالية . كل الأفكار  
الحجرية التي ولدت في العقول واتخذت قرارها الأبدى بالألا تغادر .. ولا تلين .  
مطر ...

مطر ...

والهواء البارد كصفحة أب لا يكبر أبنائه أمام عينيه وباريس العروس ،  
وأنا ! النائمة الجديدة في مدينة تحمل بها القلوب قبل الرؤوس . أحسن لسعة  
البرد . أدفن كفى اليسرى في جيب تنورتي الضيقة . وكفى اليمنى تحمل المظلة  
الزاهية تشد عليها فأذكر كرف أخى التي شلت على كفى وهو يودعنى قبل  
الرحيل . وكلماته التي تدرجت من ثغره . كلمة تدفع الأخرى وكأنه يخشى لو  
تأني أن تخونه الكلمات أو يفتر بعضها :

— ذهب لمزيد في العلوم . عيشى هناك . استفيدى من وقتك . واستمتعى بقدر

ما تسمح لك به الحدود المرسومة تذكرى دائماً أننا شرقيون ! عرب ولنا عادات .. وتقاليد .

ابتسمت له مداعبة :

- وإن أحببت « فرنسياً » فإذا أفعل؟؟ هل أتزوجه ؟

قال بطريقة ودية لا أدرى هل ليقتنع بها نفسه أم ليقتنعى :

- لا أتصور أنك ترتكبين حماقة كهذه . أنت تعرفين الأصول ... وتقاليدنا ...

القيد نفسه ....

يلفه أخى ساخناً حول عنق حتى وأنا أحمل وعصى وعقلى ، وثقافتى  
لأندرج فى ساحة الحياة . أبحث عن موطن أكبر يتسع لكل الأحلام ،  
والأمانى والأمل فى أن يخفق قلبى مرة واحدة بجرية .. بشيء اسمه الحب . كلمة  
لا يعترفون بها وكثيراً ما يقفون فى وجهها كالسد المنيع .

وأنا .....

هل حقاً أستطيع أن أترك العنان لقلبى فينطلق كحصان جامح ؟ هل يحدث  
أن يكون مقر قلبى قلب رجل لا تربطنى به صلة قربى ولا دم .. ولا دين ؟

حين كنتُ أمازح أخى؟؟ لم تكن الفكرة قد سبقت ما قلته . جاءت وليدة  
اللحظة ذاتها . أترانى الآن أندم إذ تركت فى قلبه إحساساً بالخوف منى أو  
على؟؟ هل سيعتقد بأننى أجرو أن أفعل شيئاً أو أتخذ خطوة أعلم أنها ستقيم الدنيا  
على رأسى ولا تقعدها .

هل يتصور أخى أننى أنسى تلك المهارات التى أثّرت حول الزواج من العرب ؟؟ لقد دعا البعض لحرمان الكثيرات من حقوقهن ، السكن ، العلاوة الاجتماعية ، مؤكدين أن هذه المؤهلات وحدها تجعل العربى يسعى للزواج من بناتهم . ناكرين أية ميزة أو صفة حلوة تشد الرجال إلى بناتهم . متناسين أو قاصدين أن هناك شيئاً اسمه الحب يربط بين قلبين وتنبكسر دونه كل القيود . وتذوب العقد .

إحداهن كتبت مرة تعترض على هذا الظلم وتذكر بأن بعض الشابات تزوجن « أجانب » لاثريتنا بهم صلة دم . ولا دين . وجاء الرد فى عدد آخر مفجعاً كتب أحدهم يقول : إن مثل هذا الزواج يعتبر مكسباً فقد دخل الزوج إلى حظيرة الإسلام .

باللسخريّة ! بالتقاليد الثلجية ، وهذه الأفكار المترسبة فى الظلام . كم هى بحاجة لمشاعل تذيبها ، تحرقها وتفتتح فى أرضها زهور جديدة !

وقفت فى مكافى ... أمام أحد الأكشاك المنتشرة التى تباع الصحف بمجلات مثيرة . صور جنسية تلتهمها الأيدي والعيون .. تقززت . سحبتُ مجلة للآزياء قلبتها لم تدهشنى . عندنا يلبسون كثيراً مثلها . وهنا لستُ بحاجة لأى مظهر . الناس يفكرون بطريقة أخرى . بحثت عن صحيفة عربية . فرحت ، وحين تصفحتها أصابنى غمٌ بالغ . وجدتُها مليئةً بأخبار الحروب ، والقتل . صور مشوّهة لأطفال ونساء ، ووجوه أخرى عبارة عن عظام ناتئة من أثر الجوع ! وفى صفحات مقابلة وجوه أخرى تصدر صفحات المجتمع الخملى .. وجوه منمقة وأخبار ملفقة .

إعلانات تلثم أغلب الصفحات ، مباركات ، وتعاز ، وإعلانات أخرى  
تطلب بيوتًا .. تطلب خدمًا .. وهواتف سيارة !! إعلانات عن طلب  
«كانيش» غالى الثمن ضاع أو خادمة خرجت ولم تعد !

زوايا كثيرة ... لبعض الجهلاء تشتم عباد الله وتسمى الشتيمة نقدًا . تحقد  
على الآخرين وتسمى الحقد وطنية صادقة ! ليت هذه القلوب تغسل مرات  
بمثل هذا المطر .

\* \* \*

مطر ....

مطر ....

حنان سماوى يتدفق فى سماء رحيمة ، ويرد يفتت الصمت .

هنا .. فى أعماق ، فى عاطفتى التى اشتاقت لدفء الصحراء التى لوحت  
الشمس وجهها ، عروسة سمراء دافئة تلتصق على جبينها حبيبات السراب ،  
وعطش الجوف ، ونور القمر .

حين ارتفعت بى الطائرة ودعت الأرض بحب . كان الحبل الأليف يصل  
ما بين الأرض ، وقلبي . وها هو يمتد ولا ينقطع ، ولا يترسخ رغم ما ينقله من  
وصايا . وتحذيرات وتذكير بالتقاليد مبطن بشبه تهديد رقيق ، ووعد . وكأننى  
طفلة تنرو إلى النار ولا تدرك العاقبة .

ها أنذا ...

أنزوع تحت المطر البارد بعد أن تركت النار فى الصحراء تلتهب . حملت

طموحي إلى بلد الحرية بلد الأحلام . فهل حرام أن نعلم ؟ أن نغادر القمم المغلق الذى زرعونا داخله محاربات يخشون عليها أن ترى النور ؟ أن تراها عين غريبة فتفتحها وتحييها وتكسر التقاليد ! كم أكره هذه الكلمة وحين كررها أخى تمنيت لو تنعدم من قاموس حياتنا التى غادرتها لأبداً حياة جديدة .

مطر ...

مطر ...

موسيقى انتحاره من السماء تعزف كلما ارتطمت بشجرة أو مظلة .. أو رأس عاشقين . كأنها تريد أن تمسح من الدينا كآبتها .. وشوائبها . زخات يلاحق بعضها بعضاً أحسها تجرى أنهاراً من الفرح تسابق إلى شرايينى فأزداد إحساساً بالبرد . أتذكر أننى خرجت هذا الصباح لأبحث عن « بالطو » يُخمد العاصفة داخل جسدى ، وعاصفة الشوق فى قلبى لأرض الصحراء الدافئة .

عيناي تتابعان واجهات المحلات . الأسعار الخيالية بحاجة لثورة تكسر الواجهات وأصحابها ، والبرد اللافت يقرص جسدى فأندفع نحو مقهى قريب أطلب كوباً من الشاي الساخن .

جرعته مرة واحدة سرى دفء عجيب جعلنى أبتسم ، وحين رفعت وجهى التقيت وجهاً مبتسماً كأنه يردُّ على ابتسامتى أو يهزأ منها . كانت له عينان ينبت داخلهما حقلان أخضران . نظر إلى صدرى ، لمح السلسال الذى يحمل « ماشاء الله » النعج بريق مفاجئ واستأذن بأدب :  
- هل تسمحين أن أشاركك طاولتك ؟



لم أجد مفراً أمام هذا الأدب الخجول والعينين الجميلتين رحبت به :  
- تفضل . الطاولة تتسع لأكثر من اثنين .

همس :

- عرفت أنك عريية من هذا .

وأشار إلى السلسال .

وابتسمت :

- وأنا عرفتك من العريية التي تتحدث بها .

تعانقت نظراتنا . أحسست بفرح . الآن أستطيع أن أنهى الصيام .. هذا  
وجه عريي ، لسان عريي .. سأتحديث إليه .. وسأستفسر عن بعض الأشياء التي  
أجهلها . جلس .. استمرت نظراتنا متعاقبة .. كأننا نعرف من نحن . ومن  
نكون . كأننا التقينا قبل هذه المرة بالصدفة أو في الأحلام . أو مع قطرات المطر  
المسافرة من سماء أخرى .

قلت :

- لقد أنهيت فنجان الشاي . وأنت .. هل تطلب شيئاً ؟

- لا ..

- سأستأذن إذن .

قلت هذا وبى رغبة أن يرفض استئذاني . أو أن يقوم ويرافقني في هذا الجو  
الرمادي البارد . تحرك . فرحت . قال :

- سأرافتك أو ....

استدرك كأنه تسرع :

- أو هل يزعجك هذا ؟

- لا ..

قلتها دون أن أفكر . دون أن أبطئ في الرد . ولكن حين سار قربي أحسست  
برهبة كأنها إير تذكري . هو بالطبع الخوف الذي يتبلد في داخلي . جعلني هذا  
أتلقت أخشى أن تصادفني عين تعرفني .. فتنقل الأخبار إلى أخى . إلى الأرض  
التي تأتي أن تنفس هواءً عذباً ونغرس بذرة في أرض جافة .

كنتُ أبحث عن طريقة أداري بها قلقي وهو قربي . ألحظ خطوته على  
الأرض المبللة وكفأه داخل جيوب جاكته .

بادرنى :

- نظام . اسمى نظام . طالب . وعامل .

- وأنا توار . طالبة . كسولة لا أعمل .

- لونك أسمر ولهجتك نوحى أنك من ..... .

- الصحراء ... خليجية وستقول بأننى مادمت من هناك فلا داعى للعمل .

ضحك ثم تنهد بعمق . كانت السماء لا تزال تحلب خيرها :

- حاولت أن أذهب إلى هناك . لكن الأبواب مسدودة .

أشرت أمامى :

- الحياة هنا رائعة ، والجو كذلك . وأنت تعمل هنا . فلماذا تذهب إلى هناك ؟؟ .

عقد ما بين حاجيه . تأثر من كلماتي :

- أنت محظقة . الحياة هناك تبقى أجمل . أنا ولدت هناك . وتعلمت . أنهيت  
المرحلة الثانوية . حسب أننى سأكمل كل تعليمي لكن أبواب الجامعة سدت في  
وجهي .

- لا بد أن مجموعك لم يوهلك لذلك .

- لا .. مجموعي وبجامع كثيرة كانت كافية . ولكن !!  
أحسست بالغصة .. أعرف كل شيء . لم أحاول أن أستترف منه أكثر وأفجر  
عذابه . أكمل هو :

- يشدني الحنين إلى هناك . فكرت بالزيارة لكنهم رفضوا إعطائي فيزة  
دخول . ...

قاطعته :

- ولكن أهلك هناك وتستطيع .

زفر :

- كأنك لا تعرفين القوانين . منذ غادرت لأدرس انتهت إقامتي . لم أر أهلي  
منذ سنتين .

حاولت التخفيف عنه :

- يبدو أنك تعاني .

وكأنه كان بانتظار أن أفقأ دمل متاعبه :

- لا تتصورين كم هى الحياة قاسية . علينا أن نتعلم . لا أرض لنا .. لا وطن .. حتى ولا جواز سفر . شىء نحمله لتبصق المطارات فى وجوهنا . علينا أن نشقى لنوفر مصاريف دراستنا . وبهذا نرد بعض الجميل لأهلنا .
- ليس عيباً أن يعمل الإنسان .
- لم أقل هذا .. ولكن هل تعرفين أى عمل أقوم به ؟  
هززت رأسى متسائلة وأحنى رأسه :
- أعمل فى حانة . وبعد ذلك أذهب إلى بيت عجوز أنظف لها البيت ، أغسل ملابسها ، أكوئها . أجهز لها كل ما تطلب مقابل أن أناام فى غرفة أشبه بالمرحاض . وبهذا وفرت السكن .
- يا إلهى !!!
- نعم .. يا إلهك . إننى أشعر بعظامى تتصافق من التعب . لكنى ملزم .
- هل مثلك كثيرون ؟
- بالطبع . وكلهم له مشاكل ومتاعب . والأكثر من هذا الحنين إلى الأهل ، لأى أرض ولد عليها ، أليس مخزناً أن نولد على أرض ثم ما أن نغادرها حتى تصادر عودتنا إليها ؟؟ صدق نحن نحبا لأننا لا نعرف وطناً غيرها . فكيف ترفض الأم جنينها ؟ وكيف لا ...
- اسكت ، آه .. لقد عذبت قلبى . الشكوى نفسها أسمعها هناك من أمهات ، أمهات ، وآباء .. وأزواج لا يسمح لزوجاتهم .. و .. يا إلهى هناك قوانين كثيرة خاطئة ولكن : آه .. لقد أوجعت قلبى .

اندرس في وجهه خجل :

- آسف ، من اللحظة الأولى كنت ثقيلاً عليك .

- لا تعتذر مثلك يبقى دائماً بحاجة لمن يسمعه ، لكن صدقني .. نحن أيضاً نعاني .

استغرب كلامي :

- ماذا ؟؟ المال عندكم وفير .

- هل تتصور أن المال يحمينا من التعب ، والمعاناة ؟؟

- المال يحل مشاكل كثيرة .

- ها أنت تعترف . المشاكل ولكن ! ماذا عن الذي هنا ؟؟

وأشرت إلى صدري .. وتابعت :

- في الداخل في أعماقنا يا .....

أحس أنني نسيْتُ اسمه فذكرني :

- نظام .

ضحك ضحكة صغيرة وتابع :

- اسمي ثقل .. مثلي .

ضحكت . كان دمّه خفيفاً :

- اسمع يا نظام .. أتصور أنه رغم كل الهموم التي تعانون .. تشرّد ، غربة :

فقر ، ربما اضطهاد .. ولكن أنتم تحررتم رغم هذا من أشياء كثيرة .

صمت

- هل تفهمنى ؟ .

- مثلاً ؟؟

- أقول لك . لو كانت لك أخت فى هذا البلد ، ورأيتها تمشى مع رجل ..  
تماماً كما أنا الآن أمشى معك ، وأحدث بحرية . هل سيغضبك هذا وتثور ..

و ....

- ياه !! هل هذا فقط ما تعانين ؟؟

هزئت إصبعى فى وجهه :

- أرايت ، هذا الأمر التافه حصار .. وغيره كثير كثير .

- ولكنى لا أراك تحاصرين نفسك . إنك شجاعة .

- يبدو لك ذلك . فى داخلى أحس بالخوف . أتصور أن كل العيون تراقبنى .

وأنها مجتمعة ستكون عيني أذى ..

قال بحزن :

- آسف إننى بمرافقتك أسبب لك إزعاجاً .

- لا .. صدقنى . أنا مرتاحة إليك . ولكن هذا هو الواقع .

كنا قد اقتربنا من أحد المقاهى . تلفت . ابتسم .. قال :

- بودى لو أعزمتك على جلسة مرحة هنا . ولكنك .

- أرجوك .. لا تفهمنى خطأ .

- أنصوريًا نوار أنك كبرت ويجب أن تكون ثقتك بنفسك كبيرة ، أن تتصرفي على هذا الأساس . مادمت لا تتصرفين إلا بحدود العقل . فلا يجب أن يمسك سيف الخوف .
- الخوف نما معنا..
- إنني أعجب كيف يدعونك تسافرين للعلم إلى بلد كهذا .. ثم يغرسون بداخلك الخوف من الحركة ، فتحاصرين حريتك .
- هذا هو التناقض الكبير.. وماخفي غيره كان أعظم ..
- عليك أن ترفضه .. الآن فرصتك أن تكوني شخصيتك ، أن تعتمدى على نفسك ، أن تخلقي رأيك ..
- أجل .. سأحاول ذلك .
- كنا قد وصلنا إلى نهاية الرصيف الذى تمتد عليه المقاهى . التفت إلى :  
- على أن أستأذن الآن ... يبدو لى ذلك .
- هل ضايقت خوفى !
- لا .. بالعكس . قد نلتقى فى صدفة أخرى ، ونحدث .
- مدت كفى الباردة . مدّ كفه .. تعانقت الكفان ، سرى دفء فى جسدى وأنا أغوص فى حقل عينيه وأهمس :  
- ربما نلتقى صدفة . وربما نكون أصدقاء . ابسم سعيدًا بجرأتى :  
- هى الخطوة الأولى . ثم كل شيء هين . و..... ابتعد .

المطر لا يزال رذاذاً .. ودبعًا يغسل كل شيء . ويقرر أن يمسخ عن  
الطرق كآبتها . وعن الشجر شوائبه ، وعن الوجوه حزنها .  
وأنا ....

قررت من اللحظة أن أمسخ كل شيء باضوه في ذاكرتي . لا أريده أن  
يفقس فيها ويتزايد ، قررت أن أفتح فجوة يطل منها النور ليضيء كل  
الظلمة التي تقيد الخطوة إلى المستقبل .

وأكملت الطريق ... وصوت المطر يدق في قلبي فرحًا .  
تم .. تم .. تم .. تم .. تم .. تم ..

\* \* \*



## الصرخة في فم الثعبان

تعزفُ .. أترنم .. أناملها الرفيعة الناعمة تنساب ، تضغط بخفة على أصابع  
البيانون ، ويتوزع اللحن الهادئ يمتزج بنسيمات الغرفة .. أترنم ... هي تبسم ..  
تراقب وجهي الحالم :

- سعيدة أنت ؟

- جدًا .. هذا اللحن يغزو كل نقطة دم .. فتتفجر فيها حيوة راقصة .  
تقول مبسمة :

- أنا سعيدة أيضا .. هكذا أحبك حاملة .. هادئة .. وديعة كحمامة .

- آه .. أود ذلك . لولا .....

تأتي الصرخة .. يتقلص وجهي .. تتييسُ كني فوق جبيني .. تتعارك الأشياء  
داخل رأسي ... يتحول اللحن مطارق .. تصطفق أبواب ذاكرتي بعنف ..  
تزجر صرختها اللعينة ! تطاردني .. أترنح .. أنسى سعادة اللحظة القريبة ..  
ترك البيانو .. يسبقها خوفها .. تطوق كني .. تدس وجهها في عنق .. تبلل  
عروق بدمعها .. تتوسل :

- ماما أرجوك .. حاولي .. سأعزف لك مقطوعة باخ ..
- آخ .. آخ .. الصداق .. الإيقاع الشنيع ..
- تغمري .. هلعها .. حبها .. حنانها العذب .. همسها الدفئ .. ألقِ وديع  
يشع حولي .. لكن الصرخة الملعونة !!! أقع ...
- فوقى تنهر كحبة مطر موسمي .. تنفلت من وجهها حمرة ناضرة :
- لا .. أرجوك لا .. أنت بخير ..
- اللعنة ! الصرخة تطاردني ..
- قطرة ماء تنسكب داخل حلقى .. وَجَبَة مُرَّة .. أبتلعها وأتنسم عطرها  
الدَّفَاق .. عرقها ينزل من جسد مرتجف وأرى وجهها الأبيض الصافي ..
- وثغرها يهتف :
- أنا أحبك .. هل أعزف؟؟
- اعزفي يا حَبَّة الروح .
- سأعزف للحن الذى تحبين .. سيكون أقوى من الصرخة .. صدقيني ..
- رحلت .. اللعنة عليها .. وعلى مَنْ زَرَعَهَا فى رَأْسِي .

\* \* \*

تتراخى أطرافى .. تَتَمَلَّل .. يداخلنى هدوء كغيبوبة أذوب فيها .. أسمو ..  
يفازلنى نعاس شجن .. يدغلخ مفاصلى ، كيده حين تداعب كل شىء ..  
الموسيقى تعبر مساماتى ووجهه يتلَقَّف نعاسى .. وذوبانى .. ذراعاه ترفعانى إليه ..  
كأرنبة يخف وزنى .. ويلصقنى بصدره أندس فى ضلوعه اندساس الأرنبة فى  
جحرها الدافئ .... أغرق فى النعاس .. أغرق .. أغرق ..

جسدى مسجى على الأرض .. أحلام تتراوح أطوالها تتداخل .. تغريى  
 باستسلام عذب .. ويتفجّر صمت الروح .. والموسيقى تهب كنسمات رخيّة  
 تحملنى . أنفلت من جحرى .. من بين ذراعيه الخنونين .. أنحور .. أترك جسدى  
 تغالبه الأحلام ، ويتراقص متشيّاً .

أركض .. أركض .. لا أدرى .. جهات أربع تفتح أذرعها الصاخبة ..  
 جنّات .. نيران .. عواصف .. نسائم .. رطوبة .. ثلج .. صراخ ..  
 أغنيات .. سعار مجنون .. وتأتى الصرخة . تشقّ الأصوات تغلبها تسقط بثقلها  
 العجيب داخل جمجمتى .. أحس لها ابتسامة وقحة .. ابتسامة مومس باعت  
 كل شيء فى لبلى الحقد .. والكراهية .. والغيرة العمياء .

تسقط الصرخة كجثة ترفرف حلاوة الروح فيها .. تقاوم الموت لتقتل الشعاع  
 الأبيض داخل رأسى ... تبذل أقصى ما تستطيع لتقطع خيوط الأمل العذب  
 الذى يتألق .. وكل الشرور فى أناملها الشقية الحثثة أقاوم ...

أركض .. الدم يتوزع بقوة يدفعنى .. أركض .. غابة فسيحة .. أشجارها  
 باسقة لكن خضرتها كثيبه كأن آلاف العواصف الرملية قد غزتها .. نامت عليها ،  
 وأعشاب الأرض جافة طالت كأظافر جنّيات الليل الغادرات .. شوك .. لكن  
 قدّمى نصران فأدوس على دبابيس الأرض .. الصرخة المجنونة تأتى . الموسيقى  
 العذبة تتراجع .. صداها لا يكسر حدة الصرخة و.... أهوى .. ثم أرتفع ..  
 و ... أراه بين النباتات الجافة .. يتخلق جسده دوائر .. دوائر متداخلة .  
 ويرتفع رأسه نحوى ..

أرتعد .. ألتفت إلى الوراء .. هو ذا جسدى مسجى لا يزال .. آه لو أعود

إليه .. أندغم فيه .. أندثر .. أغوص .. أفر من هذا الثعبان الحاقد ..

- لا .. إذا رأيت الثعبان . فلا تتحركى ....

قال أخى وهو يحذرنى عن ذات مرة حين التقى الثعبان فى إحدى المزارع .

- إياك أن تتحركى .. قفى حتى ينسل مبتعدًا وإلا هجم هجمته القويّة .

الخوف ... الرعدة .. رعد يتصافق داخل جسدى .. بروق حمراء ..

الفاتحة .. آية الكرسي .. المعوذات .. السماء .. الله الرحمن ..

أصلب .. قال أخى ....

أنتظر ... قال أخى ...

فم الثعبان مفتوح كفرج امرأة عابثة .. يفتح كأن جهنم الحمراء تنفث

أحشاءها الحارقة فى وجهى .. يتأملنى بنزق شرير .. أصلب حتى رموش

عينى .. لا يجب أن أتحرك . أخى قال .....

لكننى .. أخشى ... أكاد أتهاوى .. أسقط فى لجج اليأس .. لا مفر ..

الثعبان أمامى .. الأشواك تحت قدمى .. لا منقذ من شر المخلوقات ..

أعوذ ثانية داخل صدرى تنبت تعاويذ كنت قد نسيتها منذ غابت حكايات

جارتنا المسائية .. حول « منقل » الفحم .. ورائحة « الطروث » تفوح ..

وطعمه المر .. المر .. مرارة فى حلقى .. لعابى كله مر .. وهو يتطلع ..

ويقترّب ... يصل إلى قدمى .. بدأ رحلته .. يتسلفنى .. لا أتحرك .. أخى

قال .....

جسده الأملس ينساب على جسدى .. الرجفة تصمت .. أبتلع حتى دقات

قلبي .. أتركه يغزو الجسد .. يتجول عليه .. يَشُمُّ رائحة الحبيب المتألفة مع كل نقطة فيه يتشَمُّ .. عرق المتصب .. يُطرى جسدى .. فيزلق الثعبان من منطقة إلى أخرى .. هادئاً كأنه يتمشى في سهل أخضر .. كأن شعر جسدى هو العشب النابت ذو العطر الربيعي ..

أخشى أن يعوى الجوع في داخله .. فينقض على عنقي يمتص دمي .. لكنه بدواعة ينسل عائداً مترنحاً للأسفل .. يتكور تحت قدمي الثابتين .. أحسها محفورتين في الأرض .. كأنني نخلة زُرعت منذ آلاف السنين تأبى إلا أن تظل واقفة تتحدى .. هيا .. تحرك .. خذ قامتك الزاحفة وارحل . افسح لي الطريق .. جسدى مسجى هناك .. وصوت البيانو العذب يأتيني .. يهدي روعي .. ووجهها الذى خلقه الله كوجه العصافير .. فأتشئى .. أود لو استمر هذا الانتشاء لأظل صامدة حتى يرحل . لكن الصرخة اللعينة تصفع اللحن .. ووجهها .. وحنان ذراعيه - اللذين خبأتى في صدره .

أنفص .. أهتز .. أقاوم إلا أمسك رأسي لأمسك قريح المطارق الصدئة داخله .. لكنني أفضل .. أصرخ .. تنفص الصرخة ... تغادرنى .. يتسع فم الثعبان ينتفص .. ويفرغ الصرخة من نابين حقودين .. ينفث السم في ساقى .  
آه .....

شيء كالنار .. يسرى .. يسرى .. كفأى تتقلصان تقبضان على عرقها المالح ليرتد إلى مساماتي .. يشحنني بالقوة .. ليبطل مفعول السم الزاحف .. لكن السم يسرى .. ينساب .. إلى بقاى .. فأغيب .

\* \* \*

يدها تضغط على أصابع البيانو .. يسرى اللحن .. يخترق المسافات .. يعبر  
الريح الصارخة .. وهنا يستكين داخل أذنى .. لحن « باخ » .

- آخ .. آخ .. أترنح .. أتماسك .. أترنح .. أتماسك .. نشوة اللحن النافذ  
إلى أذنى تتعابث .. وجهها الرقيق يشع عبر تموجات الصوت .. يمدنى بالقوة  
يعنفنى على هذا الاستسلام الخائب .. ويزجر الثعبان الذى يتجشأ سُمّه ..  
يتعد زاحفًا .

أنادى .. أنادى .. الصوت يخرج من داخلى .. ولا يخرج . أشباح من  
حولى تتحرك .. دم أحمر يتفجر من مقلتى .. الكون دم أحمر ! صوتها  
العذب وحده يحمل عطر زهرة .. حمراء متفتحة .. يتوسل :

- ماما قومى .. تحركى .. افعلى شيئًا .. وإلا فقدت عيني الحلويتن .. وعيني  
اللتين تحملان صورتك .. و .. كُلك . أستفيق .. أقرر أن أستفيق .. أن  
أتحدى السم أنحنى .. ألتقط النباتات الجافة .. أربطها .. أوصلها .. يولد  
جبل قوى .. أشد موضع الألم .. أشد .. أشد أستل شوكة .. أمزق لحم  
ساقى الملدوغ .. ينهمر الدم متخثرًا ممزوجًا بالسم الأصفر .. وتتقاذف من  
جوفى كل ما جادت به معدنى المتضرمة بغثيانها .. أرتاح ... أنزلق إلى  
الأرض .. أتمدد .. يتمدد صوتها داخل روحى :

- تحبين هذا اللحن .. سأعزف لك الآن .. الدانوب الأزرق . زرقة السماء  
تلوح .. غيمتان تراقصان .. أتذكره :

- أحب هذا اللحن .. وتحببته .. هيا نرقص ..  
هى تعزف .. نحن نرقص .. الصوت الشجى ينقل روحى .. وسمتها ..

وشعرها المتهدل على كتفين ناعمين .. وثغرها المبرعم كزهرة تنادى .. هيا  
شُمتى أيها الرائي .. عذبة .. عذبة .. وكفاها تلامسان وجهي .. عنق ..  
باردتان أزجها .. تقلب شفتها السفلى تتكور كثمرة ناضجة ..

- طفلة .. مها تكبرين ..

وتتحداني :

- إننى أكبر ..

وأهمس :

- وأنا أيضاً .. يتغضن جيبني .

يدها .. أحسها باردة فوق جيبني .. الرأس يهدأ .. تغادره الصرخة .. كان  
يدها استلت تلك الجثة التي همدت بسمها داخل ساقى .. وغادرت .

الزرقة تصبح أكثر نقاوة .. وبهجة .. الكون أصنى .. أنهض .. لا أحس  
ألمًا فى ساقى .. أجرى .. أركض .. أضرب النباتات اليابسة .. أدوس على  
الحشائش القاسية المقطومة منذ زمن .. وجهها ينادى .. الألم صار قوة تطيرنى  
بحفّة . نحو مصدر الصوت العذب الآتى من هناك حيث جسدى الكسول يلذوب  
فى أحلامه . يجب أن أسرع .. أن أواصل الطريق الشائك .. مها كان شوكه  
سائماً .. لدغة الثعابين لا تهم .. جثث الموتى لا تحس إذا دسنا عليها .. الليل  
الذى مضى لا يكثر بنا .. النهار الآتى وحده ينتظر كوجه طفل ينتظر ثدى  
أمه .. إليه أركض .. ذلك النهار الغائب الذى سيأتى واللحن الذى يغمر  
الكون .. بأهازيج البراءة .. والسماء الزرقاء والغيمة المتلاصقتان بحب ..  
بشّية .. تؤكد أنها لن تنفصلا بعد هذا التيه الذى مضى ..

المسافات .. الموسيقى تشق أمامي فضاء رحباً أدور .. لأعبد بالجد  
الرابض .. طفلة أعود .. أعارك الطبيعة الصافية .. أستشق أحلامها الواعية  
أبدأ .. أتبلل بعطرها المنهمر .. أغتسل .. أمد ساقى الملدوغة أزيل أثر السم ..  
والصرخة الماكرة .. أنفيا من دمي ، من رأسى الشاردة نحو مدينة الرحمة  
المنتظرة هناك . لا تزال أناملها تداعب أصابع البيانو .. مداعبة أليفة .. قطتها  
تتكور تحت ساقها البيضاء .. وهو يفتح ذراعين .. سيصدع صوته :

– اللانوب .. تلك التي تحينها .. هيا .

ونصير غيمتين .. تتسع لها فسحة السماء . أضحك ..

يشدني إلى صدره ..

أعود طفلة .. أرنب .. أمزق أزرة القميص .. أندس في صدره .. أنام على  
لحمه الدافئ .

\* \* \*



## زهرة تدخل الحى

دخلت زهرة الحى ذات ليلة لا أحد يعرف من هى ! ولا كيف جاءت !  
ولماذا جاءت : ومن الذى أستأجر لها هذا البيت الذى تطل شبايكه على  
البحر . رغم هذا ، فُتِحَ للبيت باب آخر من ناحية البحر . كانت زهرة تشرعه  
فى الليل . تجلس عند بابه . وتسهر . قال جيرانها إن زهرة تعشق البحر . تناجيه  
مناجاة الخليل لل خليل ، تبته أشواقاً دافئة . تغنى له . يسمعون لها صوتاً حنوناً ،  
أو صفيراً ناعماً ذا موجات كأنها لغة عصفير ضالة .

زهرة امرأة ناضجة فوق الثلاثين . جميلة لها وجه أبيض صاف . مستدير  
وخدان متوردان يكاد ينفر دمها . وعينان سوداوان واستعتان يحرسها حاجبان  
رقيقان أشبه بسيفين حادين . أما شعرها فينسدل شلالاً أكستنائياً يغطى أطراف  
كتفها البضين . وحين تبسم زهرة تنفجر شفتاها عن صفيين من اللؤلؤ الصافى .  
ويبرز فى أقصى أطراف سنة ذهبية سرعان ما يجتنى حين تغلق الشفتين  
المكترتين .

زهرة جميلة . والحى هادئ ودبيع . بيوته الطينية لانهمل صدى لأحقاد .  
الناسُ فى الحى متآفون . حتى الحمام على الأسطح تعرف أوكارها . ولا

تتوه . ولا تتغرب . وحين دخلت زهرة الحى . هلمت قلوب النسوة الآمنات  
لعب الشك فى قلوبهن . ابتدأت السؤالات : هل هى متزوجة ؟؟

إذن ! لماذا تسكن وحدها ؟؟

هل هى أرملة أو مطلقة ؟؟

الخوف يزداد : أم تراها عذراء ستحافظ على نفسها وشبابها ؟

حين عبث الشكوك والخاوف فى القلوب . لم تعرف النسوة طريقاً لراحتهن  
إلا بيت « أم محمد » وقلب أم محمد الذى اعتاد أن يحضن هموم الحى . ويواسى  
كل مفعوج . ويبارك لكل فرح . يزغرد لسانه وترقص شفتاه ، قلب أم محمد  
الذى لا يفرق ، ولا يعرف الكره أو الحسد .

قالوا لها :

- يا أم محمد . زهرة فاتنة بابها مشرع للريح زهرة تحب هواء البحر وأزواجنا  
فيه يعملون . ونحن نخشى عليهم من الفتنة .  
بان الضيق والأسف على وجه العجوز الطيب وعابت :

- تخافون على أزواجكم . ولا تخافون على بحرهم .

- البحر للجميع يا أم محمد . زهرة تعشق البحر .

لمت دمة فى عين أم محمد . طاف حزن كأنه آت من البعيد :

- هل تحب زهرة البحر أكثر منا ؟؟ هل تعشق رملها ؟ وريحه ؟؟ وموجه أكثر  
مما عشقناها ؟؟ هذا البحر بحرنا . هو ذا أمامكم . أسألوه : من عشقه ؟ كم قلباً

نهش . وكم قلباً أسعد ! كم أخذ منا ؟؟ وكم أعطانا ؟ عظامُ رجالنا صارت له مجاديف . وأعانقهم صواري . بحرنا لا أحد يعشقه سوانا . أنتم لاتتأملون .  
تململت النسوة . قالت إحداهن :

– يا أم محمد جئنا نأخذ منك المشورة . ماذا نفعل مع زهرة ؟ كيف نحمل رجالنا ؟ وأنت هداك الله تتكلمين عن البحر . وكأنك تحشين أن تسرقه زهرة وتترك الرجال .

هزت أم محمد رأسها :

– هذا ما يتأجج في قلبي لكنكم لاتعلمون . اذهبوا إذن إلى زهرة . جسّوا نبضها . افهموا منها ماذا تريد . ولماذا جاءت ! وتفكّروا في كل ما تقول .

\* \* \*

رحبت زهرة بالنسوة ترحيباً فاجأهن . قبّلت كل واحدة منهن وكأنها تعرفها من زمن بعيد . سألت كل واحدة عن أحوالها . تلك عن زوجها المريض . وتلك عن ابنتها التي تعثر حظها . وسألت أخرى عن كُتّتها التي لاتحبل . وقررت أن تصف لها علاجاً فرفرف الفرح على وجه المرأة . سألت عن «أبو يوسف» التّجار الذي بترت يده وقبع في البيت وعن «شيخوه»<sup>(١)</sup> التي تبيع نفسها للرجال . وأكدت أن الشرف والفضيلة فوق كل شيء . آخر ما سألت عنه زهرة . وبحرص شديد . سألت عن – أم محمد – وهل مازالوا يلتفون حولها . وتصير شرايين قلبها أذرعاً تضم الجميع ؟ هل مازالوا يحبونها ويؤمنون دارها عند الشدائد والأفراح ؟ فوجئت النسوة بأن زهرة تعرف الشيء الكثير عن الحى ، وأهله .

بادرتها إحداهن :

- إذن هذا سبب اختيارك لحينا . سمعت عن ناسه الطيبين .  
رفعت زهرة حاجبًا . وبكل الثقة قالت :  
- فى كل مكان يوجد أناس طيبون . ليس هذا مقصدى . سمعت أن الحياة  
هنا أرحب . جئت أبحث عن وضع أفضل .  
قالت أخرى :  
- أو ربما لأجل البحر .  
أو مات زهرة بكفها :  
- بالضبط . هواء بحركم يناسبنى .  
- لكنّ الرطوبة عندنا شديدة . تتعب الصدر . وأنت تتركين الباب مشرّعًا  
للريح طوال الليل . ألا تخشين من اللصوص أو الكلاب السائبة ؟؟  
ضحكت زهرة باستخفاف :  
- لصوص ! ! كلاب ! أنا لا أخاف . إذا جاء اللص أعرف كيف أتعامل  
معه . أما الكلاب ! فلها علاج آخر .  
- يا زهرة . جئت وحيدة وما تزالين .  
فهمت زهرة صيغة السؤال . ابتسمت :  
- تركت زوجى .. وأولادى هناك ربما يأتون .  
ارتطم الخوف بقلوب النسوة . إذن . لها زوج بعيد وهى جميلة .

وأزواجهن لهم عيون فتانة وأيضًا لهم طباع النمل الذى يمشى إلى «رائحة الدسم» .

وزهرة ! يالها من امرأة !

أحست بما فى العيون من رعدات ، فتوددت :

– أنا لا أحب الخروج . ولا الأسواق . ولا زحام الناس . أفضل أن أبقى هنا . ولكن !!

صمت . لاح حزن على وجهها . تعاطفت بعض النسوة معها :

– لو بقيت هكذا ششجرين بالوحدة . أنت غريبة . وصرت جارة نحن مستعدات لكل ما نطلبين . والآ من أين ستعيشين؟؟

تناغم الحزن فى صوت زهرة :

– هذا ما أفكر فيه . زوجى يتأخر حتى يرسل المال . لهذا أنا بحاجة للعمل .

تبادلت النساء النظرات وثارَت السؤالات :

– ماذا بإمكانك أن تعملى ؟

– وأى عمل ستقوم به امرأه جميلة مثلك؟؟

كان فى السؤالات كثير من الفضول . والقلق . والتشوق لمعرفة الجواب .

قالت زهرة :

– أنا أتقن أعمالًا كثيرة . التطريز . الخياطة . عمل الحلوى وبعض الفطائر التى لا أظن أن أحكم يعرفها . وأيضًا أتقن كل ما يهمنى كتناء من أعمال الزينة .

« والحفافة »<sup>(٢)</sup> ثم أنا امرأة أتقن لغة جديدة . قد أستطيع تعليمها لمن ترغب .

– ترغبين إذن في العمل بين البيوت ؟

– هذا ما أريد . أحتاج إلى المال كي أعيش . المال الحلال . وشددت على كلمتها الأخيرة لتبذر الأمان في قلوب النساء . وتنهذن جميعاً ماسحات على صدورهن :

« المرأة شريفة .. تريد العمل الحلال »

\* \* \*

عدلت أم محمد من وضع « ملفعها »<sup>(٣)</sup> الأسود الذي نفوح منه رائحة دهن العود . ومسحت على وجهها . قالت :

– انتبهن يا نساء يا طبيبات الحى .. أيتها العيون التى لا ترى إلا الخير . الفتنة تدخل بيوتكن .

\* \* \*

زهرة دخلت كل البيوت . زهرة الجميلة . أصبحت حديث الحى . سموها « هبة الريح » لسرعة حركتها . وإتقانها كل عمل تنجزه . ارتدت نساء الحى أجمل الثياب . وترتيت « المطارح والمساند » بالتطاريز . وبالتزتر الملون . تجملت وجوه النساء بأصباغ . وتفنت زهرة فى تجديد شعورهن الطويلة . صارت كل البيوت تحب زهرة تطلها وتكرمها . فكل النساء راضيات . زهرة ذكية . تحرص على ألا تحتك بأى رجل . لا من الأزواج . ولا من الأبناء . إذا دخل واحد منهم فجأة دون أن يتنحى أو يطلب « درياً » تثور زهرة يحتقن وجهها وتسب

بكلمات غير مفهومة . تنصر النساء لها يؤنبن الذى فعل . لا يُردُّن أن تغضب  
زهرة . وتعاف بيتًا من البيوت . لكن حلم زهرة ظل أن ترى أم محمد .  
سألت إحدى النساء :

— ألا تريد أم محمد أن أخيط لها ثوبًا ؟؟

قالت المرأة :

— أم محمد حريصة على ثيابها القديمة لا تستبدلها . ولا تفرط فيها .

— ألا أصنع لها مساند ؟؟ فطائر ؟؟

— مساندها « السدو »<sup>(٤)</sup> أغلى عليها من كل شيء وهى لا تحب الفطائر . تصنع  
بنفسها « قرص العقيلي » .

ذاب حلم زهرة صارت كل البيوت بيتًا . إلا بيت أم محمد . ظل موصدًا .  
ولم تثر زهرة أية مشكلة فى أى بيت . صارت محبوبة . كَوْنَت الصداقات .  
أصبحت الغريبة واحدة من أهل الحى . ونسى الناس الطييون تساؤلاتهم .  
نسى الناس بيت أم محمد . تحدّثوا عن زهرة . صارت هذه الزهرة كالبيت لهم .  
داخل أوراقها يستريحون . ومن شذاها يتنفسون ومن بريقتها يستمدون كل  
جديد . وحدها أم محمد تمسح كفاً بكف . ترى .. وتصمت .. وتردد :

« لا حول ولا قوة إلا بالله . »

\* \* \*

حين تُطفأ الأنوار . ويغلق الليل عيونه . تشرع زهرة الباب . فيأتى هواء  
البحر منعشا . تحمل رائحته عطرًا خاصًا تُلَوِّح زهرة يديها الجميلتين . وحدها

ساهرة عند الباب .. الناس نيام ..

وعيون أم محمد في الفراش لا تنام .

\* \* \*

ذلك النهار . لقي الناس في بيت زهرة صبية جميلة . سألوها فقالت :

- هي أختي .

رحبوا بها . غريبة جديدة . هي أخت زهرة المحبوبة . والخي الطيب يحب  
الضيوف . ويكرمهم .

بعد أسابيع جاءت غريبة أخرى . استأجرت لها زهرة بيتاً على البحر .

- من هذه يا زهرة ؟؟

- هي ابنة عمي . مات عائلها . جاءت تبحث عن عمل .

وحين دخل البيت شاب جميل . يقف الصقر على زنديه قالت زهرة :

- لا تتزعجوا . إنه زوج أختي . يتقن أعمالاً كثيرة ولكن !

واهتزت قلوب النساء :

- ماذا يا زهرة ؟؟

- يريد بيتاً قريباً مني . ولا أجد .

لم يدم حزن زهرة أكثر من أسبوع . كان صاحب أحد البيوت يترك بيته  
ويؤجره .

كثر أقارب زهرة . يأتون . لا أحد يتساءل كيف يأتون . وأى ريح تحملهم .  
الحي غارق في طبيته . وفي الترحاب . اليد الآتية « تسد العين » تعمل . تنتج .



وتبدع . لا تكل ولا تتلمز . لا تكره أن تؤمر فتطيع . الكل يشكر زهرة التي  
تكرمت على الحى . فيكرمونها .. أى بيت تختاره زهره يفرغونه . للأنايب . ثم  
دفعت زهرة مبلغاً كبيراً واشترت البيت . وحذا حذوها كثير من الأقرباء .  
امتدت بيوتهم على طول الساحل . ولكل بيت باب يشرع . لأن هواء البحر  
الذى يناسب زهرة يناسب كل الأقرباء والقريبات . الذين صاروا من أهل  
الحى . من صلب الحى . وأحبهم كل الحى .  
وحدها أم محمد . تضرب كفاً بكف . ويرغم الخوف فى صدرها تنهّد :

« لا حول ولا قوة إلا بالله . لقد باعوا البيوت » .

استيقظ الحى ذات يوم على صدى النواح . كانت النساء الغريبات  
متشحات بالسواد . سيولاً .. تصب فى بيت زهرة . تساءل الحى ما الخبر؟؟  
جاء الجواب :

— مات لزهرة عزيز

وفى بيت زهرة ولولت النسوة وضرن على صدورهن وخارج بيتها سكن  
الرجال . وبكوا .

عشرة أيام متتالية والحزن الأسود يعرّش على الحى . حزن له لون خاص .  
وعطر خاص .

تعطل الحى . وقبعت نساؤه فى البيوت فكّرَن أن يذهبن لبيت أم محمد .  
استقبلتهن وفى الخاطر عتاب :

— طالت غيبتك .

- شغلتنا الحياة يا أم محمد .
- بل شغلتنك زهرة .
- نحن نحبك يا أم محمد . ولا نستغنى عنك . ولا عن مشورتك .
- ما الذى يقلقكم ؟
- الحى معطل . الرجال الغرباء على الساحل يكون ، والنساء فى بيت زهرة يُولولن . لا نعرف معنى لهذا الحزن يا أم محمد .
- لنعرفوا أن لكل حزنه . أحزاننا غير أحزانهم . هذا العزيز الذى مات سيحزنون عليه كل مرة عشرة أيام . ونحن ندفن موتانا ، تؤمنهم الله . ونترحم عليهم ونكره الحزن . والسواد .
- كل البيوت سوداء يا أم محمد .
- كانت بيوتكم لكنكم بعتموها صارت الآن لهم لا يحق لكم الاعتراض على ألوانها .
- وتنهدت أم محمد .
- سمعت النساء تنهيدتها نشق صدرها . وتفر إليهن . هسات تخرج من أفواه النساء . فيها ندم .. وفيها خوف وفيها تردد فى السؤال :
- ماذا نفعل يا أم محمد ؟؟
- ومن قلبها نهبت أذرع حنان . شبكت النساء إلى صدرها . قالت ولغتها أغنية تصدح :

- أنتم أبناء حبي . أهلى . وناسى . أعرفكم فكونوا حذرين . اغلقوا البيوت  
دون كل غريب . واحضنوا البحر الذى من مائه تشرىون .  
بكت النساء

بكت أم محمد .

اختلط ملح الدموع . صار حبة لؤلؤ تُذكر بوجه ذلك البحار القديم الذى  
صنع السفينة .

\* \* \*

منذ دخلت زهرة الحى . وعيون أم محمد ساهرة قلقلة لكنها الليلة غير كل  
الليالى . لقد جاءت نساء الحى . وقد بدأت عصافير الخوف تبنى أعشاشها فى  
قلوبهن . وقلوب رجالهن . جئن يفتحن القلب . والجرح . فتسيل الأحزان  
وتفتق القلق . أكثر فى عيني أم محمد .

هم ناسى .. وأهل حبي . هم أولادى . بأسفون بعد الخطأ يطلبون  
مشورى .. وآه .....

صفقت كفاً بكف :

ما باليد حيلة يا عيالى .

حملها الأرق إلى البحر . هجعت على رملة . خلعت ملفعها وانسدلت  
ضفائرها الشائبة حبلاً حنوناً يودُّ لو يضم الشاطئ كله إليه .

امتد بصرها الضعيف إلى البعيد . تذكرت زمنها الراحل . والدها الذى كان  
يأتى بعد سفر طويل يحمل رائحة البحر ضاحكاً لنصر .. أو عابساً لفشل .

وزوجها الذى تبع أباهما وركب البحر . عشقاً ينتقل بالدم . تحس هواه يسرى مع  
النسمة داخلها . تتشوق روائح « الغاصة »<sup>(٥)</sup> . وتسمع صدى زغاريد النسوة  
وفرحة العودة . المراكب البيضاء تلوح أشعتها وترقص . من هنا كانت نجىء  
لا من هناك .. والبحر واسع بتلاً تحت شعاع القمر وعينا أم محمد تعانقانه .  
وتزرعان فيه كأنها . تصل إلى العمق . لونه تحت الضوء الخانى صافياً .. وهى  
تتابع موجه تنابعه .. تنابعه .. و .. ماذا هناك ؟  
عينها تصطدمان بأشياء تتحرك .

استقامت أم محمد . للممت جدائلها الشائبة وغرست النظرة الضعيفة  
صارت نظرة صقر . مراكب تدنو . ولا تصل . هى تراها تنزف خيالات  
متحركة . تندلق فى الماء . يتطاير الرذاذ . أسماك تلك أم حوريات ! أم تراها  
شياطين ؟ خفق قلبها . وانهار جسدها الطيب إلى الرمل ثانية . توسدت ذراعها .  
قالت :

– لن أنحرك سأرى ما الذى يجرى فى البحر . أى ربح تأتى وأى شىء تنزفه ؟  
الخيالات تتحرك هارعة إلى الشاطئ . ثم خطوطاً خطوطاً .. إلى الأبواب  
المشرعة .

قناديل حمراء تندلى تعابثها الريح الخفيفة وحين تدلف الخيالات تطفأ  
القناديل . وتغلق الأبواب .

\* \* \*

فى الصباح .. وجد الناس باب بيت ام محمد مشرعاً . انهمروا إليه . هم  
يعرفون أن أم محمد لا تشرع بابها إلا إذا كان لديها أمر تود الإفصاح عنه .

أعلنت أم محمد عن كل مآثره . وأنبأ بجلت العيون خائفة غير مصدقة . لكن الناس ما اعتادوا منها الكذب . ولا الخداع . هي أمهم الكبيرة . وهي القلب الأليف الذى إليه يهجعون .

كل الآذان أشرعت للخبر الكبير . حتى آذان زهرة . والأقرباء .. ثارت .. ثاروا .. صرخت فى الناس :

— أم محمد خرفت .. مجنونة .. تحلم ..

وصرخت مرة أخرى :

— إنها تتبلى على وعلى ناسى .

صدت عنها الناس . حملت جسدها الرائع وثورتها وذبحت إلى بيت أم محمد تبعها الأقرباء الكثيرون ملأوا الشوارع بالهياج .. وبالصياح .

وقعت عينا زهرة على بيت أم محمد .

هى المرة الأولى !

خرجت أم محمد هادئة . واثقة . مبتسمة . شعاع منير ينبع من كل الوجه الذى اعتاد الطيبة . وعاش فى سلام . رفعت ذراعها لتوقف السيل . فتدلى كُم ثوبها المشغول « بالزرى »<sup>(١)</sup> التفت عليه أشعة الشمس . أثار وهجا نقاتا ذهبية شعت فى المكان . وعلى الوجوه الحاقدة كسرت الأشعة العيون . لكنها لم تكسر اللسان . صرخت زهرة فى وجه العجوز بكلمات فاسقة . فوجىء أهل الحى . كأن الصرخة لطمت كل الوجوه . تجمعوا حول أم محمد . حول جدران البيت الطينى التصقوا يحمون . وبعضهم وقف سدا .

كانوا قلة كانت زهرة والغرباء أكثر . لكنهم وقفوا . هياؤا الأذرع لتدافع  
عن أمهم .. وجدار البيت .

شتمت زهرة . عيرت أم محمد بعجزها . عيرت أهل الحى الذين استكانوا  
وتعالوا .. عيرتهم بسواعد الأقرباء التى تعمل .. عيرتهم بكل جديد جاءت به  
إليهم . عيرتهم بأنها بأموالها غيّرت .. وبدلت فى الحى . وفى البيوت .. لم تأت  
أم محمد بحركة .

لم تبك .

لم تلطم خديها .

لم ترد على السباب ... ولا التجريح . كل ما يحدث أمامها .. وما يقال .  
كانت تعلم أنه سيحدث . لكنها لم تستطع أن تقنع الناس به .

النساء باهتة وجوههن ، والرجال كاظمين الغيظ ولكن ! حين صرخت  
زهرة مهددة :

– سأطردكم من هذا الحى .

اشتعلت الثورة فى النفوس . صرخوا بصوت واحد :

– سنطردك يا زهرة .

هزت ضحكتها المكان .

تطلع الناس إلى وجه أم محمد الباكي بصمت .. تابعوا نظرتها الحزينة .

كانت تعد البيوت الممتدة على الساحل .. وتابعت كل العيون .... كل  
البيوت .. كلها .. ليست لهم .....  
وهزّت أم محمد رأسها .

\* \* \*

- 
- (١) شيخوه : اسم علم لامرأة . وأهله «شيخه» .  
(٢) الحفاقة : إزالة شعر الوجه والحاجبين .  
(٣) ملفعها : غطاء الرأس لكبار السن من النساء ولونه أسود .  
(٤) السدو : أعمال اليد البدوية .  
(٥) الغاصة : الفواصين .  
(٦) الزرى : خيوط القصب الملحبة التى تزين ملابس النساء .





## وحده الظل يلقى

لم يكن « محسن » أعور . لكنهم في ذلك الحى البعيد عرفوه بهذا النعت منذ تعرضت عينه لذلك الحادث الأليم .

كان صغيراً . يجلو له أن يُحَوَّس بين الرجال الذين يتحلقون عند باب بيتهم . يتبادلون الأحاديث ، يسمعون شكاوى بعضهم بعضاً ويتداولون شئون الحى . وأحياناً يتحررون من هوم الحياة فتعلو أصواتهم بالضحك حين يطلق أحدهم دعابة ما .. أو يعلق آخر على حادث مضحك خلال النهار .

ومحسن طفل شَدوم .. وذكى . كان يسرع إذا سمع صوت أمه تناديه من خلف باب البيت لتناوله الجمر المتوقد . فيعطيه بدوره لوالده الذى يقوم بتوزيعه على « كدو »<sup>(١)</sup> الرجال .

يقال أن محسن ذات مرة عبث بخرطوم الكدو فانزلقت جمرة ، سقطت على جبينه وأخذت سيرها حتى عينه . فاحترق جزء من جفنه . حملوه إلى « أبو فاضل » الذى كور عجينة ذات رائحة غريبة وضغطها على عينه وربطها . وأمرهم ألا يفتحوها وأن يعودوا به بعد أسبوع ليفكها بنفسه .

في الموعد المحدد رفع أبوفاضل الرباط . فبدت عين محيسن « مشبونة »  
لا يكاد يفتح جفنها .

صرخت أمه حين رآته وقد تجمهرت أمام باب « أبوفاضل » مجموعة من  
الأولاد :

- ياويلي .. صار الولد أعور .

وطرقت الكلمة أذنه وعشعشت في فؤاده .

\* \* \*

حين انتقل إلى هذا الحى تصور أن الأولاد فيه لن يفتنوا « لِعَوْر » عينه .  
لكنهم سرعان ما أخذوا ينادونه به . فيحس بالألم والخجل لكنه لم يكن يمرؤ  
على معاتبة أمه التى نطقت بالكلمة دون قصد منها ، غير أنه ذات يوم فاضت  
نفسه بالحزن فهرع إليها شاكيًا ودموعه تتسابق على وجنتيه :

- لن أخرج إلى الشارع بعد اليوم .

صفقت على صدرها :

- لماذا يا محيسن ؟؟

- الأولاد ينادوننى بالأعور . وهذا يؤلنى .

هاجت . قالت له دون تفكير :

- « أولاد الكلب » اسمع . إذا قال لك أحد منهم هذا فخذ حجرًا وأعور له  
عينه .

وسمع أبوه هياجها فصرخ :

- تعلمين الولد الحققد . افترضى أنه فعل وأعمى عين أحدهم فما العمل ؟؟

هزّت يدها :

- « بالشیطان » لتعنى عيونهم . أم أنك تريدكم أن يكسروا خاطر الولد؟؟  
أهل الرد والتفت إلى ولده محذراً :

- اسمع يا محسن . لا تسمع كلام أمك . أنت لست أعور وحتى لو كنت فليس  
عيياً أن تكون فى الإنسان عاهة المهم أن تجعل الناس ينسون عاهتك . أن تكون  
إنساناً جيداً . شجاعاً . عندها يحبونك . ويحترمونك . ولا يُعابرونك بعور  
عينك .

سرحت عينا محسن إلى البعيد . تخطت جدار البيت وأخذت طريقها  
لا تصطدم بشيء . وعلى شفته لاحت ابتسامة عذبة . يوماً .... تعلّم الدرس  
الأول .

\* \* \*

عندما لمح « جَسُوم » جرادة فى قلب الحفرة صرخ :

- الله .. هذه « مكنة »<sup>(١)</sup> . سأنزل وأخذها .

حذّره الأولاد :

- لا تفعل يا جسوم . الحفرة رطبة . البارحة نزل مطر كثير . سخر منهم :

- سأنزل يا جبناء .

وانزل إلى الحفرة . وماكاد يلقي بنفسه حتى غاص إلى نصفه بالطين فصرخ .  
سخر منه الأولاد . لكنهم حين بكى خائفاً تراكضوا يستغيثون وأصواتهم  
تسبقهم :

- أين محسن ؟ وحده سينقذ جسوم .
- صدى الصراخ والنداء طرق أذني محسن الذي كان بجوار والده في المسجد .
- قال في سره :
- الملاعين .. حتى صلاتي لا أستريح فيها . ماذا حدث ؟؟ ركض وغترته المهلهلة تتطاير معه . وصل ، وإذا عيون الأولاد تستغيث . سبقوه إلى الحفرة . وهو وراءهم لا يدري ما الأمر . لكنه حين ألقي النظرة داخل الحفرة . فهم أن الأمر يحتاج لشجاعته حقاً .
- صرخ في جسوم الباكي :
- ما الذي أنزلك ؟
- تطلع إلى وجوه الأولاد بشكل اتهام . لكنهم تدافعوا :
- قلنا له لا تفعل .
- لم ندفعه إليها .
- أراد أن يأخذ الجريدة .
- تصور نفسه محسن الشجاع .
- أسكتهم محسن :
- اخرجوا جميعكم .. هيا .
- سحب غترته ، أدلاها إلى جسوم :
- امسك بها جيداً . وسوف نزعبك .. هيا .
- أمر الأولاد بأن يتحركوا . لكن أحداً لم يفعل . قالوا :
- نخشى أن يسحبنا هو . نصفه مدفون ، والطين غداً .
- بصق على الأرض :

- لعنكم الله يا جبناء :
- ثم خاطب جسوم :
- سأزعجك وحدي . هيا .. تشجع .
- أخذ ساعده الرشيقان يشدان ، وهاتئ يعلو وحين ارتفع جسوم قال له :
- الآن . ارفع قدمًا واحدة . اسندها إلى جدار الحفرة تعكز عليها وارفع
- الثانية . وحاول الصعود .
- تشجع جسوم . وخرج من الحفرة . كان الطين يلوث ملابسه . وأقدامه
- ويديه . اقترب ملهوفًا نحو محسن ليقبله شاكرًا لكن الآخر رده :
- إياك أن تندفع مرة ثانية خلف الأشياء الصغيرة . هل أنت مجنون ؟
- لن أفعل . ولن أنسى معروفك .
- تراكض الصبيان . أصواتهم الماتفة تتخالط :
- عاش محسن الأعور .. عاش الشجاع .
- مسح محسن على عينه المشبونة وتهد سعيًا وفي داخله كان السؤال يلح
- بلهفة :
- ترى : هل سيصل الأمر أمونة !!

\* \* \*

- يوم شبت النار في بيت « صالحه المجنونة » لم يكن أحد في الشارع . محسن
- وحده كان يمر ضدفه . وقد أرسلته أمه إلى بيت قريب ليحضر لها « مُلْمَصًا »<sup>(١٣)</sup> .
- شاهد صالحه المجنونة يتلى لسانها الأحمر وقد هبت مذعورة إلى الشارع عارية
- القدمين مشقوقة الجلباب :
- حريقة .. يا الأجواد .. حريقة .. بقرقي تحت العرش ، ستأكلها النار .

نسى محسن ما أوصته أمه والتقط طابوقة أخذ يطرق بها أبواب البيوت  
المغلقة ، فتراكضت نسوة .. وصبية جاءت لهم أوامر أمهاتهم :  
- أسرعوا .. أخبروا الرجال .

محسن لم ينتظر . دخل البيت . خطوته السريعة تتجه إلى العريش كان خوار  
البقرة يأتى مذبحاً . النار تلتهم بعض القش والأخشاب المتراكمة في الزاوية  
ويعلو دخان أسود .

لف محسن غترته حول رأسه . دفن وجهه ما عدا عينه السليمة . اندفع إلى  
مريط البقرة . وفكه بسرعة وشجاعة . ثم سحبها وراءه وخرج بها إلى الشارع .  
سلمها لصالحة . تحول رعبها إلى فرح . أمسكت بمحسن . حاولت أن تقبله  
لكنه سحب نفسه من بين يديها وانفلت إلى بركة الماء في الحوش يزعب منها  
ويصب على النار .

لكن النار الجائعة امتدت إلى سقف العريش ولسانها الأحمر ظل يفتح  
ولا يفيدها الماء القليل . فجأة ... طرقت الأسماع أجراس سيارة الإطفاء . فترك  
محسن الدلو وخرج مستريحاً ينظر إلى صالحة تحتضن بقرتها الوحيدة بفرح . بينما  
سؤال ملهوف يتكرر بداخله : هل ستعلم أمونة بما حدث ؟؟؟

\* \* \*

ذاعت في الحى والأحياء الأخرى شجاعة محسن . تكررت له مواقف  
كثيرة . اعتمد عليه كثيرون في أعمال تكاسلوا عن القيام بها . وكان لا يتذمر ، بل  
يشعر بالزهر والفرح لهذه الثقة غير متظر لشكر أو مكافأة من أحد . كل ما كان

يجمعه هو أن تصل أخباره إلى أمونة . وحين يداعبه هذا الأمل ينسى عينه المشبونة  
ويتطلع إلى الأفق البعيد وكأن شعاعاً من الأمل يلوّح له وحده .

\* \* \*

ذات عصر تخلق الأولاد . ضحكوا .. تحدثوا .. تباروا في الركض على قدم  
واحدة . وفي لعب « التيلة » . وكان محسن يتفوق ، وفي كل مرة يذكّرههم :  
- الأعور غلبكم .

فتحمر وجوههم خجلاً ويتسمون :

- يا محسن . نحن لا نقصد أن نعايرك .  
يرد على ابتسامتهم :

- أنا لا أزعل . أعور .. أعور . المهم أنني أرى .

ويرون عينه تشرح فيصمتون .. يتطلعون إلى وجهه .. إلى عينه المشبونة التي  
تعانق باب بيت أمونة في آخر الشارع . يتركونه سابحاً في حلمه . يتبادلون  
نظرات ذات معنى . ثم يلکزه أحدهم في ذراعه :

- تحبها يا محسن ؟؟

يخفض بصره .

يقول آخر :

- هي ليست جميلة .

يرفع رأسه محتثاً :

- أنفها طويل .

- خلقة الله .. هل تعترضون على الله ؟؟

- يا محيسن . يقولون أنها لا تزال تتبول في فراشها .  
يدافع بشدة :
- كذابين . من قال لكم ذلك ؟
- الناس كلها تعرف . يدخلون إلى بيتهم فيشاهدون فراشها منشوراً تحت  
الشمس تفوح منه رائحة عطنة .
- هذا لا يعنى أنها تتبول . الرطوبة تعطن كل شيء . حتى أفواهكم .
- نحن لا ندرى لماذا تحبها يا محيسن . رغم أنها متعالية ومغرورة .
- أحبها لأنها أم الخير . سمعنا أخبارها ونحن في حيننا القديم . قالوا أن يوم  
ولادتها كان يوماً عجيباً . تفجرت السماء بالمطر ، فاختضرت الأرض ،  
وزاد الخير ، وتكاثر الماشية ، وانتعش الناس بعد سنوات من الجلب  
مُرت . وبعد ضيق عانوا منه . فكيف لا أحبها ؟؟
- كثيرون هم الذين يحبونها يا محيسن . وهى لا تميزك . وربما لا تحبك .  
يبتسم ابتسامة حزينة :
- لا يهم يا أولاد . المهم أن أحبها أنا . أن أتذكر دائماً أنها مصدر الخير الذى  
جاء حيكم والأحياء الأخرى وصدقوني . لو طلبت أموتة حياتي فساموت  
لأجلها .
- ضحك الأولاد هازئين :
- لهذه الدرجة تحبها .. إنك مجنون .  
هَبْ واقفاً :
- قولوا ما تشاءون « أموتة » تستاهل الحب .
- ومشى .. عيناه ترفرفان نحو البيت . في قلبه كان ثمة رجاء أن تبقى . حتى وإن  
لم يههما بقاؤه .



تاج الأولاد خياله حتى اجتمع . وتداولوا الحديث :

- هل معقول أنه يحبها كل هذا الحب ؟؟

- يقول إنه استعد أن يموت لأجلها .

- كذاب .

دافع آخر :

- لأ.. محسن صادق . إنه شجاع .

- إذن ! نتحن صدقه وشجاعته .

\* \* \*

في الليل ، تحلقوا ثانية قالوا له :

- يا محسن .. بعد ذهابك خرجت أمونة . قلنا لها عن حبك واستعدادك

للموت لأجلها و....

خفق قلبه ، تهاول وجهه أكد :

- أي والله أنا مستعد .

- لكنها يا محسن لم تصدق . قالت إن كثيرين يقولون مثل هذا الكلام ولكنهم

لا يفعلون .

هز كفيه :

- هي حرة .

- لكننا يا محسن لم ندعها تشك بكلامك . أكدنا لها أنك صادق .

تنهد :

- الحمد لله . صدقت إذن .

- لا يا محسن . لقد اشترطت شرطاً لتصدق .

قفز من مكانه :

- بالله عليكم .. ما هو شرطها ؟
- قالت إذا كان يحبني حباً صادقاً فليأكل الزجاج .
- ارتخى جسد محيسن . أحس وكأن سكيناً حاداً يقطعنه . هذا شرط غريب .
- هل يعقل أن تكون أمانة وجه الخير قاسية إلى هذا الحد حتى تشتط شرطاً كهذا ؟

خرج السؤال من فمه وقد انتفخت جفنه المشبونة :

- آكل الزجاج ؟؟
- أحس الأولاد بغصته وذعره :
- ها .. لن تقبل شرطها بالطبع .
- لمح شماعة تطل من عيونهم ونظرات تحد تكاد تصفعه منتصرة عليه . فقرروا لحظة شجاعة ألا يتراجع :
- بل أقبل شرطها .
- شهق الأولاد :
- هل أنت جاد فيما تقول ؟؟
- قال بثقة :
- كل الجد .
- ومتى ستفعل ؟؟
- متى شئتم .. على شرط أن تبلغوا أمانة .
- و .... وعده الأولاد بذلك .

\* \* \*

دخل البيت واجمًا على غير عادته . انزوى في طرف الغرفة يعايب أطراف  
قدميه ، يفتت بعض الطين الذى علق بها . وفى ذهنه تتبارى سؤالات وظنون .  
وفى قلبه يتوقد حزن كبير طفحت آثاره على وجهه . ولا حظت أمه ذلك .  
فاقتربت منه بحنان :

— مابك يا محسن ؟؟

— لا شىء .

— هل عايرك أحدهم بعينك ؟؟

— لم يعد أحدهم يفعل . إنهم يسموننى الشجاع .

— إذن ما بالك حزينا هكذا ؟؟

تطلع إلى وجهها الحنون . ود لو يقفز إليها ويرتمى فى أحضانها ويعترف لها  
بأنه يحب سواها ويتعذب . وأن ثمنا للحب مطلوب منه . وأنه سيفعل .

كاد لسانه يسعفه لولا أنه تذكر مدى حبها له . وأنها لو عرفت فسثور ونخرج  
فى الغد إلى الأولاد تشبههم ضربًا . أو ... ما يدرىه فقد تذهب إلى بيت أمونه  
وتخبر أهلها فتفضح البنت . وتهب زوبعة فى الحى لا يسكتها إلا الدم . طمأن أمه .  
واستكان فى فراشه ، مرارة فى داخله ترسم جذورها وأوراقها على صفحة وجهه  
وأمام عينيه تمر صور كثيرة .

بريق الزجاج الذى رضى بأن يأكله ليؤكد حبه يتوهج أمامه فيرتعد .

وجوه الأولاد التى نطقت بالتحدى لشجاعته ، هل يدعها تنتصر عليه ؟؟

وجه أمونه الأسمر الذى تدفقت مع إشرافه كل الخيرات هل حقًا سيفعل ؟؟

قد يكون الموت !!

لا ... لن يفعل ... ليذهب الأولاد إلى الجحيم .  
 لكن مارداً استيقظ فجأة يؤنبه ، ووجه أمونة يشرق كشمس الحياة .  
 - يجب أن أفعل . لو خانتني الشجاعة مرة فإن ثقة الأولاد بي ستهاون . وستفقد  
 أمونة أملها بي . كما فقدته بكل من يقولون ، ولا يفعلون .

\* \* \*

حين غابت الشمس اجتمعوا . وما أن لحوا محسن قادماً حتى تقافروا من  
 أماكنهم غير مصدقين . أقترب مزهواً مبتسماً :

- ها .. هل نبداً ؟؟  
 تطلّعا إلى وجوه بعضهم ، صعب يفوح من النظرات التي تركزت على صرة  
 يحملها محسن .  
 جلسوا .

ترفع محسن بينهم . حلّ الصرة .  
 - ما هذا ؟؟

في صوت واحد نبع السؤال .  
 أشار بيده إلى الأشياء :  
 - كما ترون .. تمر ، قطعة زجاج . و.. هاون .  
 لم ينتظر أسئلة أخرى . أخذ قطعة الزجاج وأسقطها في الماوان الصغير .  
 وبدأ يدقها حتى نعمت . وضع بين أصبعيه قليلاً من المسحوق ، عرضه  
 عليهم :

- ما رأيكم هل يكفي هذا ؟؟

لم يردوا عليه ، كانوا مصعقين في انتظار ما سيفعل ، ألقى على وجوههم نظرة تحد . ثم أخذ يفتح الثمر ، يسحب منه النواة ويلقيها . وحين انتهى بدأ يعجن الثمر بالزجاج . يصنع كرات صغيرة حتى اكتملت لديه سبع كرات تطلع إليهم :

- هل تأكدتم الآن أن الزجاج داخل الثمر؟؟

أولاً وأخيراً يرووهم . قال صبي :

- هل ستأكلها حقاً؟؟

قال بشجاعة اعتادها :

- طبعاً .

صاح آخر :

- لا يا محسن .. لا تضر نفسك .

وقف خوفهم :

- الزجاج صار ناعماً .. لن يضرني .

اعترض آخر :

- لكنه زجاج . سيمزق مصاريتك وما يفيد أن .....

قاطعه محسن :

- مها يكن . ما دامت أموتة قد اشترطت فسا فعل . عندما تأكد للأولاد

إصراره الشديد أصابهم الملح ، ارتعشت قلوبهم . لقد أرادوها مزحة صغيرة

لكنه صلبها . وسيجازف بحياته . خافوا عليه ، الشجاع الذي كثرت أفعاله

قد يموت فعلاً .

اقتطعوا عنه . أخذوا يتشاورون . ثم ركضوا نحوه . شكلوا دائرة حنونة :

- يا محسن . لا تفعل .
- حاصروه . شدوا على جسده . حاولو أن يأخذوا كرات التمر المشحونة بالموت . لكنه بشجاعة وقوة تخلص منهم وأصواتهم تملأ :
- يا محسن .. لقد سخرنا منك . أمونة ما قالت أى شىء ، نحن اخترعنا الكذبة لنختبر مدى حبك لها .
- لم يصدق :
- كذابين . أمونة اشترطت . لكنكم الآن خائفون .
- يا محسن ، لا تضحّ بنفسك . نحن نريدك بيننا . لقد علمتنا ألاّ نندفع وراء الأشياء الصغيرة .
- فبرقت فى عينه أشعة حادة :
- ولكن الحب ليس شيئاً صغيراً . وبالذات حب أمونة أم الخير .
- حاولوا أن يقنعوه :
- إنها لا تعلم بحبك .
- رفع رأسه عاليًا . فتح عينه المشبونة . قال بثقة :
- ولكنى أحبها . وهذا يكفى .. هيا .. عُدّوا لى من واحد إلى سبعة . رفضوا .. صمتوا .. ولم يحرك الصمت إلا صوت جرش الموت تحت أسنانه . مات الأعور .
- وحين تحلق الأولاد حوله كانت سحببات صفراء ترسم على وجوههم . وهم يلقون عليه نظرتهم الأخيرة .
- لاحظوا أن عينه المشبونة كانت شبه مفتوحة . ومنها يطل ظل ابتسامه .

استمر بعد ذلك يلزمهم كلها مروا أمام بيت أمونة . ولم يجرؤ أحد منذ ذلك  
اليوم أن يعلن حبه لها .

\* \* \*

---

إشارات :

١ - كدو : الأجيّة .

٢ - مُكَنَّة : أنثى الجراد . أما الذكر فيسمونه - عصفور - .

٣ - ملمص : أداة معقوفة تستخدم لإخراج الدلو من البئر .





## رأسان .. وجسد

هو ذا النور يأتي معربداً يَخترق العين كسهم أزرق ما تكاد تبتلعه حتى يرتد  
من حيث جاء كمجنون تطارده عاصفة من الأيدي .. يعود مرتطمًا بالجدار  
فيتعانق والضوء الأحمر .. ينفرشان على السقف كطرحه عروس .

أميل إليه .. أهمس :

.. هل سنبقى طويلاً ؟؟

يشد على يدي :

.. استمتعي بوقتك .. الليل طويل .

.. أكاد أختنق

.. سيبدأ الآن استعراض الضوء .

\* \* \*

تتحول الألوان مستطيلات متداخلة .. تنفرع منها مربعات .. تكبر ..  
تكبر .. وحين تمتد نحو الجدران المغلفة بأرقى أنواع الورق .. تتحول إلى دوائر

وتعود ثانية إلى السقف .. ثم تنزلق إلى الأرض اللامعة بشكل حبات .. من  
الزمرّد .. تدوسها أقدام الراقصين فتتفض ثانية ترفض الذل وتعلو إلى السقف ..  
تصير أنياب ثعابين تواصل زحفها على كل الأطراف . تلتق ألوان الوجوه وتضئ  
على أزياء النساء بريقًا يغير ألوانها فتصير أزهى وأجمل .. أما الشفاه المصبوغة  
فتكشف كل شفة منها عن مطلب شهوانى .

أتململ .. أعيد الهمس :

— شفتاى جافتان .

— بلليها بالماء .

— الماء بارد .. والجو خائق .

مال محتضًا كفى :

— يا حبيبتى .. استنشقى ليدخل الهواء إلى صدرك .

\* \* \*

صدري محروس بشال من الحرير ..

وتلك الصدور التى أمامى شبقها ينفر .. وآهاتها تشق الثياب .

— لو كنا فى مكان آخر ..

— هى ليلة وتمضى .. لا تفسدى على نفسك المتعة .

متعة !!؟

ما المتعة فى أن أراقب هذه الألوان الصارخة المستغيثة التى تهاجم العين

لتخطف البصر؟؟

ما المتعة في أن أراقب هذه الصدور العارية المأسورة بالعقود وبالسلاسل؟؟

من أين جئن بهذه المصاعغات؟؟

كيف تتحمل أعناقهن هذا الأسر؟؟

ولماذا يتأدين في استعراض كل ما تحفل به خزائنه؟

كأننى داخل زنزانة حديدية .. يهطل أننى عرقاً .. تفوح من الراقصين روائح  
مرشوشة بإسراف تحت الآباط وخلف شحمة كل أذن .. وما بين الساقين مخلوطة  
بروائح الجسد الذى لا يستحم إلا في مناسبات كهذه .

تبتلع رثاى الروائح .. وعصير الدخان المتطاير .. تنغذيان بالعرق .. وفوح  
الكؤوس المتنوعة .. وروح الكلمات الملجمة الراغبة في الانفعالات .. لكنها تحرس  
داخل حلقو أصحابها .. فتفوح لغة أخرى ..

أنامل تتشابك بعرقها ... عرق عَزْ مفاجئ .. وخدود تتلاصق ألوانها ..  
وعيون تتناجى مناجاة محروم .. الموسيقى هنا تصادر كل صوت .. فيصير لكل  
شء عشقه الخاص .. حتى سيقان النساء الملمعة التى تبتلى برعشات تسرى حتى  
لتكاد تصل بهن إلى قمة النشوة .

أحرك ساقى الباردة .. ألامس ساقه القوية :

- هل نتحرك؟

- لا يجوز .

قالت عيناه بعتاب واضح أخرس عندى كل رجاء .

\* \* \*

لا رجاء ...

ولا أمل في المحاولة ...

استسلمت ..

أخذت أتابع المشاهد أمامي .. الخدم يحومون حول الطاولات كالذبابة ..  
تحط أكفهم فوق الصحون تهيل أشكالاً من المقبلات .. ترفع كؤوساً .. تملأ  
كؤوساً .. تلمس أطراف صواني الخضار الطازجة .. لم يكن هذا موسم بعضها  
لكنها جاءت . فكم دفعوا ثمنها ؟ ومن أين جاء الثمن ؟ كل شيء متوفر هنا ..  
حتى « لبن العصفور » الذي تحلم به صبيات اليوم كمهر يقدم لأب جشع يهوى  
صفقات البيع .

الضوء يداعب المكان بشراسة يغزو كل بقعة بتحد وقح ... والصدور  
والهة ..... لحمها بارز كبضاعة خاسرة تبحث عن مشتر جائع ... الجرسون  
يقترّب ...

يدس فيه ذا الشفة الغليظة داخل أذني :

— الطلب سيدني ... سكالوب ... ؟ ستيك ... ؟ تفرز جسدي ....

إحداهن تقترب من طرف البيست .. تدور بجنون وهي تراقص رجلها كبقرة  
« صارف » فيبدو فخذها المشعجان .

الجرسون يكرر سؤاله مصطنعاً الأدب .. فأنته إلى أن فه لا يزال يحاصر  
أذني .

- هيه ... لحم ماذا ؟ بقر؟ ضأن .. أو أرانب ؟؟ سألته .. فضحك ببلاهة ..  
 .. تعود أن يفهم رواد هذا المكان الرفيع ماهو الأسكالوب ! والفيليه ..  
 .. الستيك .. وأنا بلهاء إذ أوجه له هذا السؤال .. لكنه يرد وكأنه يمنحني  
 فرصة معرفة شيء جديد .

- ستيك عجل ..

هزئت رأسي :

- طيب ... ستيك .. لكن سوّه جيّدًا .

\* \* \*

بانتظار اللحم ....

لحم شفتى بين أسناني ...

ترى ١٩ أى لحم سيأتى به ؟؟

لقد تاجر بعضهم بلحوم الحمير .. والققط الضالة والكلاب السائبة .. وفي  
 هذه الدنيا هناك من يلجئون بعضهم بعضًا .. وقد يعجبهم هذا النوع من  
 اللحوم .. من يدري مالذى سيدخل معلق هذه الليلة ؟؟؟

\* \* \*

الليل أحسه طويلاً شاقاً .. وجسدى مستسلم رخو يتراقص عليه الضوء  
 العنيف ، من هنا يأتى كأنه سيف يتر الذراع فأهتز .. من هنا يضغط على  
 الصدر ... فأتصور أخطبوطاً عشق صدرى فجأة .. وجاء يصادره لنفسه وهاهو

ذا ... بنفسجياً كلون دم معتق يأتي من الأعلى .. خطأً رفيعاً حاداً ينصب على رأسى فيشقه ... فينشط كـرغيف ساخن .

\* \* \*

صار لى رأسان ... يستندان على رقبتي الصلبة الثابتة على جسدى ...  
ينفصلان شيئاً .. فشيئاً .. يتابع الأول بنظراته الضوء الهلوان ... يتسلى  
بالنظر إلى الجماعة ، يرضى بحصار الواجبات الاجتماعية . هذا السلك الشائك  
الذى لو فررت منه لتمزقت أواصر الصداقة . بينا رأسى الثانى يطوف بأحلام  
الهروب .

فى هذا الكهف ... تموت الحياة ...

سنابل الشمس لا تدخل .. لا تطرد جرائم البلخ والمهر السارية ...  
فيستشرى المرض فى الصدور ، فى الضمائر .. فى الأجساد .. فتنتعش اللذات  
وتتنصر الشهوات .. وتقرر النساء الماريات ألا وقت لتربية الأطفال .

تتوتر أعصاب رأسى .. يميل على الرجل الذى يغرق فى يقظة السبات :

- هل سنبقى طويلاً؟؟

- نحن مدعّوان ولا يجب أن نفصل عن الجماعة .

\* \* \*

رأسى المفصول يتمرد .. يبنى انفصلاً عن توأمه .. يبدو الاشترازم من  
لأشكال الضوئية المربعة رغم روعة تكويناتها واضحاً على قسماته يؤكد لنفسه :

« كل هذا لا يريح . الحياة في الخارج راحة يومية للذئبة فلم الانتظار ؟؟ »

يتلفت رأسى .. يخشى أن يلمح أحد الفكرة في داخله .. لكن عيون الجميع وعقولهم ساجدة في أجواء المكان .. هائمة بروائحهم الممتزجة . ينتهز رأسى الفرصة .. ينفك عن الآخر .. ينسل من على رقبتى إلى الأرض .

\* \* \*

رأسى يتبه لرأسى الهارب ... يتابعه وهو يسير متعثرًا بين الطاولات المزكومة باللذة .

رأسى يشفق على رأسى .. يخشى أن يفقد السيطرة على نفسه فيتعثر .. وتدوسه أقدام الراقصين .. أو أحذية الرواد الذين مازالوا يتهاقنون على المكان . أحذية الخدم السريعة ترحم الرأس .. توسع له الطريق . بعضهم يداعبه .. بعضهم يتسم له مودعًا غابطًا العين التي سترى ضوء الفجر .. أحدهم يدس في ثغر الرأس قطعة لحم .. لكن الفم يلفظها .. يكمل سيره ورأسى الأول قلق يتابع الخطوات .. يخشى أن يقع توأمه بين أنياب الرجال .. أو فتنة النساء أو تسلط عليه جنيات الليل .. أو تلمسه أطراف زهرة فتغريه بعطرها فيضل طريقه .. لكنه سار واثقًا .. مرحًا جبارًا يحمل فرحة .. يطير بحرية نحو الباب المخملى .. يدفعه .. و .... يهرب .

\* \* \*

هرب رأسى ...

يحسده رأسى الآخر الذى يئن تحت سيطرة الضوء المخبون .. يأكلنى الكرسى

المخمل .. كأن آلاف الديدان قد ولدت فيه .. تتبى في رأسى فكرة ... تلتهم  
كالتناع البرق في ليلة شتاء مفاجئ ..

أتلقت .. أحتش أن يثير البرق شهوة الاستفسارات فيخمد التمرد الذى  
ولد .. تمرد يدعو أن أطلق هذا الجسد للدفون إلى ساحة رحية ... إلى حيث  
كركرة العصافير العاشقة .. وزغاريد النهار الذى يولد الآن ..

أرفع كفى إلى عنى .. أحسسه بجزر .. ثم أرفعها إلى قمة الرأس . أحزها ....  
أنزلنى إلى الطرفين .. أحرك أناك أن فتحة العنى توسعت قليلاً بعد أن انفصل  
الرأس .

أفرح .. أمد أصابعى الرقيقة .. أدها في فتحة العنى أوسع ... أوسع ...  
أوسع .

أنزل الرأس ... يزداد الاتساع .. تصير فتحة عنى مهبلًا طرماً في لحظة  
ولادة يتوسع كلما مارست أصابعى عملية طلق صناعى له .. أرشى .. وأشد ..  
أرشى وأشد .. لم يبق الكثير .. هاهى طلقة أخيرة .

ويولد الرأس كطفل يтим .

أمسك به بكفى .. لا أثر لخلوش .. ولا قطرات دم .. ولا بقايا عظام ..  
أنظر إليه بإشفاق .. ازعه في كف واحدة .. كطفل أبله .. بالكف الأخرى  
أوسع مكاناً على الطاولة لليلة بعشرات الأصناف التخمعة باللحون ... أضحه  
في المكان .. أداعب شفته بركة .. أمسح على شعره .. وأودعه ..  
انفلت جسداً بلا رأس .. لاحقة برأسى الماروب إلى الحياة .



هي ذى الحياة يصدق فجرها .. بدأ الليل يتجشأ ظلمته .. بدت المدينة  
كعروس نحلى تحت ضفائر الفجر المتناثرة .. تفوح رائحتها عذرية كأن الليل لم  
يتنكها بعد . تفتح بساتين الصباح شيئاً .. فشيئاً .. كأوراق وردة .. تتمطى بين  
ذراعى عاشقها .. وتهب نسيانها الطرية هبواً رقيقاً يلفح الوجه كقبلة أم .

\* \* \*

أركض ...

تركض الشوارع بأعمدة النور المنحنية المطفأة ..

وتركض الفراشات ... وأوراق الأرصفة ..

أهتف ...

يهتف ضوء الصباح .. مولودٌ يومىٌ يسمع العالم صوته ويفرح ...

أنادى ..

تنادى أصوات الباعة النشطين الطيبين ..

أسعل ..

ينهق حمارٌ دؤوب ..

أتلقت ..

تلقت أعتاق الشجر المحملة بخيرها .

أصرخ ...

نصرخ الحياة كلها من حول .. مبكرة .. طازجة ... شهية الرائحة كمرغوة  
حليب دُرَّها الضرعُ للتو !!

أمضى غارقة نحو قلب المدينة .. هي ذى المساكن المتراسة تلفظ أجساد  
أصحابها إلى الشوارع المبللة بندى الصباح .. وبول المواشى .. يتوزعون في  
الأزقة الضيقة .. أجساد طموحة تعارك الحياة ... مستوية زاحرة بالحرارة ..  
عرقها مالح رغم طراوة الصباح .. عروقها نائمة تستغيث بدمائها .

هي ذى الرغبة في الحياة .. وفي معاركها .. مفروشة في لحومهم السمراء  
التي صقلتها الشمس .. تشققات .. عفورة في الأكف الخشنة .. وفي الحياة التي  
تعلو فوق عيون تدمج فيها شهوة البقاء ... والعطاء .. رغم التعب ..  
يتحركون .. لا يستريحون .. لقمة النهار التي تأتي بالآه .. وبالرجاء .

أواصل السير....

أندس في الأزقة اندساس الخيط في ثقب الإبرة . أجساد تتوزع تحت  
جدران الأبنية العالية .. وعند أعتاب الجوامع المتناثرة مآذنها نحو السحاب ..  
وفوق الأرصفة . تحمل عاهاتها ، ونؤسها ، وزفرات الجوع ، والعري . وتحلم  
بلقمة .. وملابس لعيد يسمعون أنه يأتي .

أتابع أقدامًا عارية لأطفال تشهى أعينهم الغفوة في هذا الفجر المنتفخ .  
يتحلقون حول بائع فطورهم اليومي متسابقين إلى الرزق .. مهرولين بعد ذلك  
إلى الجحور الضيقة التي يتزاوج فيها أهاليهم كالأرانب .. يحوعون .. ينامون ..  
يستيقظون على أمل أن يندس في الجحر المنسى رغيف خبز تقاسمه العائلة بالعدل  
وتصوم بعده شهرًا .

تدخل إلى جسد روائح المدينة الحنون .. رغم بؤسها تنغرز في مساماتي ..  
تدخلها .. تذوب في دماي .. فأشبع .. أحس للشبع طعمًا لذيذًا .. أحس  
امتلاء ينسني رأسي الذي تركته هناك على الطاولة الزاخرة بأشهى الأطباق . وهو  
يتابع الضوء المتلاعب برشاقة مرعبة .. وينصت إلى الموسيقى المجنونة التي يحرص  
دونها أى صوت . هل ترى رأسي هناك يتذكر جسدي المنفصل عنه ؟؟ هل  
يتذكر توأمه الذي قرّ بجلده من ذلك الكهف الصاخب ومن حياة ميتة رغم  
توهجها .. وصخبها ؟؟ أم تراه فقط ينتظر طبق « الستيك » الذي طلبت من  
الجرسون أن ينضجه جيدًا ؟

هل تراه الآن في الصحن تفوح رائحة شوائه ونضجه ؟؟ هل هو شهى  
الرائحة كأجساد هؤلاء الكادحين ؟ تستوى الروائح داخل صدرى .. رائحة مدينة  
واحدة شقها السيف نصفين كما شق رأسي .. فصارت مدينتين .. مدينة تفقد  
الوعي بصخبها المجنون .. ومدينة تعيد الوعي للصخب اليومي من أجل  
اللحمة .. من أجل أن تبقى الرؤوس صلبة فوق الأعناق .



أنحس عنى ..

أذكر رأسي الذي هرب .. أين هو الآن ؟؟ هل ترى عيناه ما أرى فتمتلئان  
دهشة .. وبهجة وتسبيحًا ؟؟

هل تتحرك في عروقه نشوة الاكتشاف فيمارس عشقه للأرض الرطبة ..  
والأجساد العامرة بنشاطها تعانق غصون الحياة الطرية .. تتعلق بأذيال أمل لا  
تطفأ شموعه رغم هبات اليأس الحارقة ؟؟

أشهى عناق رأسي .. تيار الشوق يهزني فأسرع أضرب الهواء الذي بدأ  
يتسرب إليه دفء النهار . أبصمُ خطواتي على الأرصفة .. أزجها في الدكاكين  
وداخل الأبواب للمشرعة .. أبحث .. أصرخ :

- يا رأسي ... أين أنت ؟؟

أكرر الصراخ .. ثم الحمس .. ثم الصراخ . ثم ..

يأتي صوته دافئاً :

- أنا هنا ..

وأراه ... بين أحضان الأرض الرطبة ترحب السعادة على وجهه .. وتحتل  
إبتسامات .. تنوهج شبابتك عينيه المفتوحين على عرس الحياة الدائم .

أدنو منه .... يتسم ...

أمد كفين مشتاقين .. فيستسلم لظراوتها .. أمسح عليه بحتان .. فيتذكر أن  
له قاعدة تنتظر أن يجلس فوقها .. ويستقر .. أوسع فتحة عتي .. أحمله ..  
أدسه في الفتحة .. يفرح .. أفرح .. يضحك .. أضحك أحسه يلتئم بالجسد  
بحرارة كحرارة النظرة الأولى بين الأم .. والوليد المنتظر .

يسأل بصوت عذب :

- إلى أين ؟؟

- سنعود .

- يحتاج صوته :

- إلى ذلك الكهف العاهر !

أطبب عليه مطمئنة :

- بل إلى توأمك القفول المستظر هناك .

\* \* \*

أعدو .. ورائحة المدينة المرهقة معي .. أحملها أريدها أن تبقى .. أخشى أن  
تسلخ عن لحمي وجلدي متصورة أنني سأرفضها .. أو سأعجل منها حين أصل  
إلى ذلك المكان المبعق بأرقى أنواع العطور . أحضن أطرافي .. أنجس الرائحة في  
جلدي .. أتمسكها لتبقى داخل صدرى .. تفوح فيه .. وتشعر بالأمان .

\* \* \*

لم يشعر بنحوي أحد .. كآتني ما غادرت ورأسي إلى مكان ما .... كأنني  
لا أحمل رائحة تشق بعرقها أنوف الجدران .. وخلابا اللحم المشوى .. كل شيء  
كما هو ... الطاولات المقروشة بالأكولات التي لو كانت هناك في تلك الأزقة لما  
بقيت لحظة واحدة . أدنو من الطاولة التي يجلس عليها رأسي ... كان غاضباً .  
ما أن جلست حتى عاتب توأمه :

- لقد تأخرت ..

- كانت رحلة للذئبة .

- أنا جعت ..

- وأنا لست جائعاً ؟؟

.. هل أكلت في الخارج؟؟

- لا يوجد لحم هناك ...

- لكن اللحم هنا كثير ..

- سلخُ الأجساد التي تكدح تحت الشمس .

الجرسون يقترب بأدبه المصطنع . يضع طبق « الستيك » المشوى أمامى ..  
أسمر كأجساد الرجال الحاملين بطعمه .. أمسك بالشوكة .. والسكين ... أضعها  
فوق قطعة اللحم .. أَّهْمُ بلذبحها .. أدوس عليها .. أصيبُ أحدَ عروقها .. يَثْقُرُ  
الدمُ .. أَحْمَرُ .. أَتَقَرَّزُ .. ترتعش يداى ... أرتعش كلى ... ثور معدنى ..  
أحس بأننى أمام لحم آدمى ....

\* \* \*

## المحتويات

٥	فتحية تختار موتها
٢١	ويبقى الصوت حيا
٤١	ينفصل الوطن ... تنفصل الطريق
٥١	على سفر
٥٩	الكيسة
٧١	الشمس وضحاها
٨٥	المدينة .. الحلم
١٠١	لا يصلح للحب
١١٣	دقات المطر
١٢٧	الصرخة في فم الشعبان
١٣٥	زهرة تدخل الحى
١٥١	وحده الظل يبقى
١٦٧	رأسان .. وجسد





رقم الإنتاج ٥٢٩٣ / ٨٥ الترخيم الدولي ٦ - ١٤٥ - ١٤٨ - ٩٧٧

## مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع حجاز - مكتب ٧٧١٨/١ ، ٧٧١٥٧٨ - براديا - بيروت - لبنان  
٥٥٥٥١ KHROK UN  
بيروت: ١٦ شارع حجاز - مكتب ٨٦٤ - ٨٦٤٨٩ ، ٨١٧٢١٣ - براديا - بيروت - لبنان  
KHROK ٥٥٥٥١ L



